

بطون الاستغربية

محمود الشرقاوى

١٩٦١

الناشر
مكتبة الانجلى المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد
القاهرة



الطبعة الأولى

مفرد الطبع محفوظة المؤلف

اهداءات ٢٠٠٠

مكتبة

أ.د عبد الحميد بدوي

الكتاب، المكتبة، العمل الأول

بطول الاستعمارية

محمود الشرقاوي

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين مابغا)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

عشرات الكتب ، وآلاف الصفحات ، أُلِّفَتْ وكتبَتْ في تاريخ وطننا العربيّ منذ مئات السنين . ولكن السّمة الغالبة عليها جميعاً أنها تؤرّخ للملوك والحكّام والوزراء والعلماء وأصحاب الذكر والوجاهة والتصدّر . ولكنها لا تحفل بسواد الناس وعامّتهم . تتحدّث عن الحروب والغزوات والفتوحات . ولكنها — حتى في حديثها عن الحروب والغزوات — تؤرّخ للقوّاد وأمراء الجند . وتهمل ، في الأكثر الأعمّ ، مَنْ سِوَاهُمْ ، مهما أظهروا من الشجاعة والفداء ، وأبدوا من التضحية والبلاء .

تاريخ يخدم الملوك والسادة والكبراء . ويهمّل السواد والأفراد . ولولا ما نجده عند ابن إياس ، والجبرتيّ خاصة ، ما استطاع مؤرّخ أو كاتب أن يجد سيرة مجاهد أو بطل من أوساط الناس أو أبناء الشعب . وما نجده عند الجاحظ مثلاً من سيرة لصعول أو مغامر ، كان الغرض

(ب)

منه الإغراب والتظرفُ ، والتحدثُ به إلى الأمراء والملوك ، لتسليةهم .
وتقع على كثير منه ظلالُ الشك والوضع .

وقد دعوتُ ، في الجزء الثالث من كتابي : « دراسات في تاريخ
الجبرتي » إلى مقاييسَ جديدة لدراسة تاريخنا الحديث^(١) ، فقلت إن
دراسة هذا التاريخ ، منذ الفتح العثماني ، ومنذ استيلاء محمد علي على الحكم
خاصة ، « خاضعةٌ لموثرات غير أمينة وغير منصفة ، وغير مفيدة . بل هي
ضارةٌ بالغة الضرر على وجه التأكيد .

أما أنها غير أمينة فلائها كانت منحازةً إلى جانب الخصومة مع
شعبنا ، وكأنها لا تؤرخ له ، بل تجمع المآخذ ، والآثام ، والمثالب فتلصصها
بهذا الشعب ، الذي خذل أمام العثمانيين . ولسكنه لم يفرط في حق وطنه
وشرفه ، بل دافع عنهما أروع دفاع وأكرمهما . وشعوبُ العالم كلها يتناوب
حياتها النصر والهزيمة .

وأما أنها غير منصفة ، فلائها لم تبحث عن العلل الطارئة . والعوامل
الدخيلة التي انتهت به إلى الهزيمة أمام العثمانيين ، ثم أمام الفرنسيين
والإنجليز . بل جعلوا سبب ذلك دوافع أصيلة في تكوين الشعب نفسه

(١) « دراسات في تاريخ الجبرتي » ، مصر في القرن الثامن عشر :
ص ١٠٩ — ١١٢ من الطبعة الثانية .

(ج)

وإدراكه، والمقاييس التي يقيس بها أهداف الحياة والكرامة والشرف،
والحرص على الحرية والعزة . وكان يجب أن نبحث عن هذه وتلك .

وأما أنها ضارة بالغة الضرر . فليس يخفى ذلك على مفكر أو متأمل .
لأنها تهدر في نفوسنا كل معنى كريم ، وكل إحساس بالنخوة الوطنية ،
وكل شعور بمجد الماضي وكفاحه .

ولا يزال كثيرون منا ، ومن رجال التربية خاصة ، يذكرون دنلوب
وسياسته في وزارة المعارف . ولم يكن دنلوب شخصاً أكثر مما كان فكرة
ومذهباً . الغايةُ منهما إذابة كل شعور قومي ، وكل معنى من معاني
« التربية » الوطنية والفردية والسياسية . ولم يفعل الإنجليز ذلك عبثاً .
بل كان هدفهم منه التمكنُ لسلطانهم واحتلالهم . كأنهما قدّر لا مفرّ
منه ، وأن تاريخ مصر كله ، والقيم الفردية والجماعية المصريين .
أساسهما وقوامهما : الخضوع لحكم الغير والرضى به . »

ومن هنا تبدو الأهمية البالغة لتأريخ حياتنا ، في الماضي القريب والبعيد،
من جديد . وتبدو ، أكثر وأكثراً ، أهمية هذه الأسس الجديدة التي
دعونا وندعو لالتزامها في كتابة هذا التاريخ ودراسته . لتكون هذه
الدراسة تزكيةً لمواطننا الوطنية والقومية ، وتذكيراً لنا، ولشبابنا خاصة ، بماضي
آبائهم وأجدادهم ، وما بذل كثير منهم في سبيل الحق والشرف .

(د)

والوطن العربي . وايسكون هذا التاريخ سيجلاً صادقاً لأبجاد ماضينا .
ولننصف به كثيرين من أبطالنا الذين ضحكوا وكافحوا وبذلوا ثم
نسيهم تاريخ وطنهم . ولم يكن لهم ذنب إلا أنهم كانوا من الشعب ، أو
أن الظلم والظلام غلبهم وقهرهم . . . !

حتى من هزم من الملوك ، مثل سلطان مصر الشهيد طومان باي ،
أو فشل من الثائرين بعد نجاح ، مثل صاحب الزنج ، نجد أن التاريخ لم
ينصفه . إن لم يكن خذله هو أيضاً أو أهمله أو تجنى عليه وظلمه ، فصدق
في هؤلاء وأولئك ما قيل من شعرٍ قديم:
والناس من يلقى خيراً قائلون له

ما يشتهي ، ولأمّ الخطيء الهبل . . .

* * *

وفي كتابنا هذا : « بطولات عربية » : دراسة لحياة طائفة من أبطالنا
العرب في التاريخ القديم والحديث . على هذه الأسس الجديدة . من هؤلاء
الأبطال من بذل حياته ودمه في صحارى المكسيك ووهادها ، أو في أدغال
إفريقيا ، عندما كانت تسمى : « القارة المظلمة » . أو على طوابى الإسكندرية
دفاعاً عن الشرف العربي ، أو في سواد العراق ومدنه وحواضره ، دفعاً
للظلم وتحريراً للعبيد وطلباً للعدل . ومنهم من بذل حياته ودمه في بيداء

(هـ)

الشام ، وصحراء العرب ، وسهول فلسطين . تحقيقاً للوحدة العربية الكبيرة الشاملة . ومنهم من تصدى للظلم والجبروت ، وتحدى إثم توفيق ، أو غدر محمد علي . فلم يمل ، ولم يلبس ، ولم يهادن . حتى قضى شهيداً مأجوراً ، أو بطلاً مذكوراً تضرب حياته للناس المثل والعبرة . ومنهم السلطان الشهيد الذي كان كفاحه مثلاً رائعاً للمعاناة والتضحية والصلاية والبذل والصبر ، كما كان حظه مثلاً للتعاسة والشقاء والعسر : ذلك الذي لم يبق سيفه مهما يُخَذَّل ويهزَم مرة بعد مرة ، حتى يُسْفَكَ دمه ظلماً كما يفعل بالجرمين والقَتلة والصعاليك . وهو ، قبل مقتله ، يجابه عدوه القاهر أمام رجاله ويجادله حتى يُخزّيه . ثم يقف أمام جلاّده الذي يضع الحبل حول عنقه فلا ينسى أنه ملك وسلطان ، « فيأمر » الشانق بأن : أنجز عملاًك ... ! ويكون ذلك آخر ما نطق من القول . ومنهم الأمير الذي هجر قصوره وجاهه وأمواله ليسير من بلاد المغرب فيحارب الفرنسيين في البحيرة ويهزّمهم ... ! منهم المرأة التي أنقذت شعبها من المجاعة بحيلتها وشجاعتها ، ومنهم الذي ضحى حياته في سكون وصمت فعرّفنا بطولته وبذله ، وجهلنا عنه كل شيء ، حتى اسمه ... ! منهم الصبي والفتى ، ومنهم المسلم والمسيحي واليهودي ، كلهم ضحى وبذل ، في سبيل وطننا العربي الكبير .

وقد تباعدت وحدة الزمان والمكان في هذه البطولات التي سردناها

(و)

من تاريخنا القديم والحديث . ولكنّ أمراً واحداً يجمعها ويربط بينها : هو أنها صدرت من أبطالٍ ضمتهم وطننا العربيّ الكبير ، وجرت أحداثها على أرض هذا الوطن الكبير .

وفي كتابنا هذا فصول موجزة عن بطولات خالدة أبدّوها شباب لم يبلغ بعضهم سنّ العشرين ، وقعت أحداثها في أزقة حى سيدنا الحسين بالقاهرة ، أو على جبال السند في أقصى الشرق ، أو بين رياضِ غرناطة وأزهارها ومياهها الجارية في أقصى الغرب . أو على أرض مؤتة في البلقاء من فلسطين الشهيدة . أو بين بطاح المدينة المكرمة ، أو على سوادِ قرية « الفقاعى » من صعيد مصر ، بطولات صنعها شباب ، وشهدتها بقاع بعيدة قريبة من وطننا العربيّ الكبير ، بعيدة في الموقع والمكان ، قريبة أو موحدة في الشعور والعاطفة والإحساس .

وسيجد شبابنا خاصةً ، في وطننا العربيّ الكبير ، من هذه البطولات .
المبارة أروع الأمثال .

سبّر هذه البطولات وتلك ، أهدبها إلى : وطننا هذا

العربيّ الكبير .

محمود السرقاوى

القاهرة : ٣١ مارس ١٩٦١

الفهرس

صفحة	صفحة
الشيخ جيمس أبو نضارة ١٧٠	مقدمة أ—و
شجاعة امرأة عربية ١٧٨	رايات مصرية على أرض المكسيك ٣
السلطان الشهيد :	أحسنن آتيها الجندي المصري ... ١٤
طومان باي ١٨٥	شجاعة وشرف ٢١
شباب وبطولة	عرايى الفلاح ٣٠
صى أسود ٢٠٥	تأثر من القرن الثالث ٣٨
لمض بنا إلى حيث تريد ... ٢٠٨	بطل شهيد مجهول ٦٠
أصبرهم على الجوع والعطش ... ٢١٢	في القرن الثامن عشر مصر نالت
يقول له النبي : فداك أبى وأمى ٢١٥	استقلالها ووحدت البلاد { ٦٧
فأخ قبل سن العشرين ... ٢١٨	العريسة
الفاخ الإفريقي ٢٢١	محاولة أخرى لاستقلال مصر .. ٨٥
الموت خير من الذل ٢٢٥	مؤرخ القومية العربية وعدو محمد على ٩٧
يزيد بن يزيد ٢٢٩	بتال تحت قلعة الجبل ... ١٢٣
الأعمى ٢٣٣	مجاهد من الغرب ١٥٣
فتى من الصعيد ٢٣٧	الفضل ما شهدت به الأعداء . ١٦٤

رايات مصرية على أرض المكسيك

هذه قصة من قصص البطولة النادرة ، سجلتها فرقة مصرية سودانية في القرن التاسع عشر ، وكتبت صفحاتها المشرفة بين وهاذ بلاد المكسيك وجبالها وأحراشها الموبوءة بالحمى الصفراء والدوسنتاريا .

كانت مصر والسودان ، في ذلك الوقت ، بلداً واحداً ، يدافع جنوده عن راية واحدة . ويتقاسمون ، في ظل هذه الراية، الأمجاد والبطولات جنباً إلى جنب .

واقترضت مصالح فرنسا وإنجلترا وأسبانيا ، في سنة ١٨٦١ أن تعلن حكوماتها الحرب على المكسيك ، واشتركت إنجلترا وأسبانيا في هذه الحرب فترة وجيزة ، ثم تخلفتا وتوقفتا ، وتركتا فرنسا وحدها تخوض حرباً قاسية . وكانت فرنسا يوم ذاك تحت حكم نابليون الثالث . وبينها وبين مصر علائق وشيجة ومنافع متبادلة بدأها محمد علي عندما احتال على حكم مصر واختلسه من أهلها ثم اتخذ من فرنسا حليفاً له وسنداً ، ودامت هذه العلائق يحرص عليها أبناؤه من بعده ويتوارثها ولادة مصر من لأسرته السابقة .

وتقدم نابليون الثالث إلى صديقه خديوى مصر سعيد باشا يرحوه في

أن يمدد ببعض الجنود السودانيين والمصريين ليدستعين بهم في حرب المكسيك هذه ، بعد أن تخلت عنه حليفته : إنجلترا وأسبانيا . فلبى سعيد رغبة صديقه الإمبراطور وأرسل له فرقة منهم . مؤلفة من ٤٥٣ ضابطا وصف ضابط وجندى . على رأسهم البكباشى : « جبرة الله » أفندى ، واختير وكيله : « محمد أفندى الماس » . وقد أقام هؤلاء الجنود من الإسكندرية على ظهر الباخرة الفرنسية : « السين » في ٨ من يناير سنة ١٨٦٣ فوصلوا « فيلاكروز » بالمكسيك بعد سبعة وأربعين يوما من رحيلهم ، وبعد رحلة شاقة مضنية مات فيها سبعة من الجنود . وكان سفرهم من الإسكندرية قبل وفاة سعيد باشا بثلاثة أسابيع .

بقيت هذه الفرقة المصرية السودانية في المكسيك من ٢٣ فبراير سنة ١٨٦٣ إلى ١٢ مارس من سنة ١٨٦٧ . أى أربع سنوات وسبعة عشر يوما ، اشتركت خلالها في ٤٨ موقعة انتصرت فيها — كلها — على أعدائها ، بلا استثناء . مع أنها كانت دائما أقل منهم عدداً . ولما عادت إلى فرنسا ، ثم إلى مصر ، كان عدد من بقى من أفرادها ٣١٣ ضابطا وجنديا . أى أنها فقدت في هذه الحرب الضروس في أكثر من أربع سنوات لقيت فيها ، مع الحرب ، كثيرا من الأمراض والأوبئة : ١٢٠ جنديا وضابطا .

وقد أشادت التقارير الفرنسية عن هذه الحرب بمقامت به هذه الفرقة المصرية السودانية من ضروب البسالة الفائقة والمقدرة الممتازة واليقظة والبراعة في إطلاق النار . وقالت بعض التقارير إن جنود هذه الفرقة كانوا يختارون للمواقع التي لا تستطيع الجنود الفرنسية أن تصمد فيها .

في بعض هذه التقارير أن إحدى مدن المكسيك الكبرى حوصرت ثم سقطت ، واستسلم من حاميتها ستة وعشرون جنرالاً ، و ٩٠٠ ضابط ، و ١٢ ألف جندي . وكلفت الفرقة المصرية السودانية بحماية الساحل بين هذه المدينة : [Pwepia] وبين البحر ، فقامت على هذه الحماية ، بكفاية جعلت القائد يقول : « إنه ليس لديه ما يبديه بشأنهم ، إلا الإطراء والثناء من كل الوجوه » .

وفي ١٢ أكتوبر سنة ١٨٦٣ نشبت معركة بين هذه الفرقة وأعدائها قال القائد في تقريره عنها ما يلي : « لقد كلل هذا القتال رؤوس السودانيين المصريين الذين قاموا بأعبائه ، بأسمى أكاليل الفخر . فإنهم لم يبالوا بالنار المنصبة عليهم من الأعداء ، وردّوهم — وهم يزيدون عليهم في العدد تسع مرات — مدحورين » .

وفي ٢٢ إبريل من سنة ١٨٦٤ كتب هذا القائد يقول : « لقد سلك
السودانيون المصريون مسلكاً برهن على بطولتهم ، فقاتلوا عدداً يربو على
أضعاف عددهم ، وبمواهبهم بما بلغوه من الشجاعة الفائقة » .

ورفع القائد ، في ١٢ من يوليو سنة ١٨٦٤ ، تقريراً إلى وزارة الحربية
الفرنسية يذكر فيه ما أثبت به الفرقة في الحرب ، ويثنى عليها أعظم الثناء
فيقول : « إن هؤلاء السودانيين المصريين يسرفون في القتال إلى درجة
ملحوظة الشجاعة . وإني لم أر في حياتي أنداً حماسة تضارع حماسهم . فقد
كانت عيونهم وحدها هي التي تتكلم ، وكانت جرأتهم تذهل العقول
وتحير الألباب . حتى كأنهم لم يكونوا جنوداً بل أسوداً » .

ورفعت بين ٢١ و ٢٤ يناير من سنة ١٨٦٥ ثلاث معارك كبرى ،
اشتركت فيها هذه الفرقة ولقيت فيها كثيراً من المشقة والجهد الذي يصعب
احتماله . فكتب عنها القائد العام للمناطق الحارة بالمكسيك ما يلي : « من
الصعب أن يجد الإنسان ما يعبر به عن بأس هؤلاء الجنود وصبرهم على
الحرمان واحتمال المشاق ، وبسالتهم ، وحميتهم في إطلاق النار ، وجأدهم
على السير » .

وكانت هذه الفرقة تحتل متسعاً من الأرض مساحته ١٦٠ كيلومتراً ،
وكانت بعض نقط الحراسة لا يزيد عدد جنودها على ٣٠ جندياً ، ومع ذلك

استطاعت أن تبث الرعب في قلوب عصابات من المكسيكيين ، يتراوح عددها بين ٣٠٠ و ٣٠٠ جندي . وقد ذكر القائد عنهم في ذلك مايلي :
« يا لها من يقظة ، ويا لهم من أبطال ، تملك حب القيام بالواجب أفئدتهم . فهم لا ينفكون عن القيام به ، حتى أنه لم يحدث مطلقاً أن يوغت جندي منهم فوجد غائباً عن مكان حراسته . وهم يضاعفون ، من أنفسهم ، الحرس ليلاً إلى ثلاثة أمثاله ، ليأمنوا كل مباغطة » .
ومن المواقف البارزة لهؤلاء الجنود ، أن عشرين منهم ، على رأسهم ملازم ، أرسلوا لتعزيز حامية فانقض عليهم مائتا مكسيكي وهم في الطريق ، فأصلوهم نارا حامية حتى أوقعوا في صفوفهم الارتباك ثم أسرعوا إلى كهف تحصنوا فيه ، ودافعوا عن أنفسهم ، حتى وصل إليهم مدد من الجنود فأنقذوهم .

وفي ليلة ٢٥ يوليو من سنة ١٨٦١ هاجمت فرقة من ٢٠٠ مكسيكي ٢٦ جنديا منهم ، فظلوا يحاربونهم حتى أصبح الصباح ، وانسحب المهاجمون تاركين تسعة من القتلى ، وعدداً من الجرحى .

ومع هذه الشجاعة الفائقة ، والقدرة الممتازة في القتال والحرب والصبر العجيب على المتاعب والمشقات . فقد امتازت هذه الفرقة المصرية السودانية في سلوكها وأخلاقها واستقامة أفرادها جميعا ، حتى وصل حسن الثناء عليها

إلى مسامع القادة في فرنسا ، وإلى مصر بعد ذلك . وسجلته لهم الرسائل
والوثائق الرسمية ، مما كان شرفاً لهم ولوطنهم .

وقد نالت هذه الفرقة ، ضباطاً وجنوداً ، تقديرًا عظيمًا وسمعة رفيعة ،
في فرنسا وفي مصر ، بسبب هذه الأعمال الرائعة التي قامت بها ، والأخلاق
الكريمة الرفيعة التي التزمتم بها في سلوكها . فنال كثير منهم أوسمة الشرف
العسكرية الرفيعة .

وبعد أن أنهت الفرقة مهمتها في المكسيك ، ونالت فيها هذا القدر
العظيم من التوفيق والثناء ، عادت إلى مصر . وفي طريق عودتها إليها
أقامت في فرنسا بعض الوقت . ولقيت هناك أعظم مظاهر الترحيب
والتكريم والإعزاز .

وضعت تحت إشراف قائد الحرس الإمبراطوري لنابليون الثالث .
وأقيم لها عرض عسكري رائع في باريس بعد ظهر يوم ٣ مايو من سنة
١٨٦٨ وشهد العرض الإمبراطور نابليون بنفسه ، وكان إلى جواره « ناظر
الجهادية المصرية » شاهين باشا . وبعد انتهاء العرض قدم الإمبراطور
التهنئة إلى قائد الفرقة على بسالة جنوده وشجاعتهم ومقدرتهم ومساهماتهم
بكفاية تامة مشرفه في هذه الحرب القاسية ، ثم قدم لهم المكافآت .

وعادت الفرقة بعد ذلك إلى مصر فاستقبيلات فيها بكل تكريم وتقدير .

أقام لها إسماعيل ، خديوى مصر ، عرضاً عسكرياً فى فناء قصر رأس التين ، وأقام لها لطيف باشا حفلة شائقة تحت رئاسة رئيس الوزراء ، شريف باشا . وأنعم إسماعيل على الضباط والجنود برتب عسكرية ، ووجه إليهم ثناءً عظيماً ، وأبقى مرتباتهم كاملة ، معاشاً لهم بعد اعتزالهم الخدمة . وأمر لهم بمسكن خاص . وبعد ذلك أنعم على قائد الفرقة برتبة الأميرالاي ، ووجه إليه هذا الخطاب ، الذى يدل على عظيم التقدير . ونحن ننشره بنصّه لما فيه من الدلالة ، ولما له من قيمة تاريخية :

« افتخار الأكبر والأكارم ، محمد ألباس بك الذى كان بكباشى الأورطة السودانية المصرية التى كانت بمكسيكا ورقى إلى رتبة أميرالاي ، زيد علوه .

بما أنه من عادتنا المألوفة ، وسجيتنا المعروفة ، مكافأة ذوى الاجتهاد ، وأرباب الصداقة والرشاد ، وتبليغهم المراد . وقد سرنى ما بدا فى جهات مكسيكا من الفرقة المصرية ، التى قمت بحسن إدارتها ، وما شهدت لها به الألسن فى ميادين القتال ، من براعتها فى فنون الحروب ومهارتها ، إعلاء لشأن الراية العسكرية ، وإعلاننا لشرف العساكر المصرية ، مع غربة الأوطان ، وتباعد المسكن . وسرنى أيضاً ما ثبت لها من الأخلاق البهية ، والسيرة المرضية والاستقامة الكلية . كما سرنى الآن عودة هذه الفرقة للديار ،

ر فمة أعلام الفخر ونسرة والاستبشار « ثم يلي ذلك إبلاغه الإنعام عليه برتبة الأميرالاي .

ومحمد بك ألماس هذا بقي في خدمة الجيش حتى وصل إلى رتبة اللواء، واشترك بعد ذلك في حروب السودان . وكان ، عندما سافرت الأورطة إلى المكسيك ، وكيلا لقائدها . أما قائدها . البسكباشي جبرة الله محمد أفندي : فقد مات بالحمى الصفراء في مايو سنة ١٨١٣ . ، وأثنت عليه القيادة الفرنسية ثناء كبيراً . وأرسلت حكومتها خمسة آلاف فرنك إلى الحكومة المصرية ، لتسامها إلى ورثته تقديراً منها لشجاعته وحسن بلائه في الحرب .

وينب أن نقول هنا إن هذا التكريم من إسماعيل وحكومته لم يقصد به تمجيد هذه الفرقة الباسلة والإشادة ببطولاتها . بل كان الغرض منه التظاهر والباهاء ، والتعرب إلى فرنسا وإلى إمبراطورها نابليون الثالث صديق إسماعيل وسعيد من قبله .

والذي يحكم مصر كما كان يحكمها إسماعيل : يستذل شعبها ، ويمتهن كرامتها ، ويغتصب أموالها لينفقها في شرّ السبل ، كما كان يفعل إسماعيل ، الذي يحكم مصر على هذه الصورة لا ينتظر منه أن يمجّد جنودها أو أن يشيد ببطولاتهم وأمجادهم .

* * *

هذه قصة بطولة عربية ، لا ننتهي من تسجيلها قبل أن نستخلص

منها بعض العبر : من هذه العبر أن حكام مصر وولائها ، يوم ذاك ، كانوا يرضون عواطفهم الخاصة ويحاملون أصدقاءهم على حساب هذا الدم المسمى الخالص . فهذا سعيد ، خديوى مصر وواليتها ، يقدم إلى صديقه نابليون الثالث هذه الفرقة المصرية الباسلة « هدية » له ، يشترك بها ، باسم فرنسا ولتحقيق أطماعها ، فى حرب لا ناقة لمصر فيها ولا جمل ، كما يقول المثل العربى القديم ، ولم تكن فرنسا يومئذ - كما لم تكن يوماً ما بعد ذلك ولا قبله - صديقة لمصر ، ولم يكن نابليون الثالث ولا إمبراطوريته حريصين على خير مصر أو الوفاء لها وتقدير معونتها . بل كانت الصداقة بين سعيد وبين الإمبراطور صداقة الذئب للحمل ، كما يقولون ، لفرنسا منها الغنم كله ، وعلى مصر وشعبها المقهور ، الغرم كله . فقد كانت فرنسا ، كما كان الغرب كله يوم ذاك ، يآتمر بوطننا مصر ، بل بالوطن العربى جميعه ، ويحيك لها وله الدسائس والمؤامرات . بل يغزوها ، بالحديد والنار قبل ذلك وبعد ذلك ، فى الجزائر وفى مصر ، وفى غيرها من أقطار وطننا العربى هذا . ولكن سعيداً ، خديوى مصر وواليتها « يهدى » جنود هذا الوطن إلى عدوه وغريمه ليحارب فى مجاهل المكسيك وبين أوبئتها وأمراضها . ليرضى نزوة خاصة له ، ويحامل عدواً فى ثياب صديق .

وماذا أخذ سعيد ، حاكم مصر وواليتها ، والأمين على مصالحها ، من

صديقه الإمبراطور لقاء هذه الجهود الفائقة الممتازة التي بذلها جند مصر
والسودان هؤلاء . ولقاء الآلام والحن التي حلت بهم في أرض المكسيك
وبين سهولها ووديانها وجبالها ومن مواجهة أمراضها وأوبئتها وأجوائها...؟
ماذا أفادت مصر وأفاد حاكمها وواليتها سعيد من صديقه الإمبراطور
لقاء هذا الدم العربي الخالص الذي أريق على أرض المكسيك في هذه
الحرب...؟ .

إنها وإنه لم يفيدا شيئاً ، بل لقد بذل سعيد وبذلت مصر ، في نفس
الوقت ، وأعطيا ، لنفس الإمبراطور . بذل سعيد ، من مصالح مصر وباسمها ،
أصديقه الإمبراطور نابليون الثالث نفسه « منحة » قناة السويس ، التي
أعطاهها لصديقه المهندس الفرنسي دليسيبس ، هذه « المنحة » التي لقيت
مصر منها من الحنة والبلاء والثقوة والمغارم ما لقيت . وهذا الامتياز الذي
نعرف من تاريخه ما نعرف .

وهكذا كانت تساس أمور وطننا مصر ، وتعالج شؤونه ومصالحه .

ومن هذه المعبر ، أن هذه الفرقة السودانية المصرية أبدت هذه الشجاعة
الفائقة وهذا الصبر النادر العجيب ، وهي تحارب في أرض بعيدة نائية
تفصلها عن وطنها آلاف الأميال من الأرض والماء ، وتقاتل عن قضية
لا تعرف عنها شيئاً ولا يعرف وطنها عنها شيئاً . فهي تحارب وفي نفوس

أفرادها « فراغ » عاطفي^٢ نحو قضية لا تثير في قلوب أفرادها حمية ولا نخوة ولا غضبا ، وهي — مع ذلك — تبذل في سبيلها الدم والحياة .

وأبدت الفرقة هذا الخلق الرفيع وهي بعيدة عن وطنها وأرضها وناسها وهم لا يكادون يسمعون أو يعرفون خبراً من أخبارها يسوءهم أن يعرفوه أو يظهروا عليه . فكيف لو أن هذه الفرقة كانت تحارب دفاعاً عن أرضها ووطنها وحرماتها وشرف قومها وأبنائها وأهلها . . ؟ وتقاتل عن قضية تعرفها وتفهمها وتثير في قلوب أفرادها الحمية والغضب والنخوة . . ؟ وتشعر بالتجاوب مع قومها وناسها وتحس أن عيونهم تقع عليهم وأسماعهم تتلقف أنباء جهادهم وسلوكهم .

لقد حارب أفراد هذه الفرقة بهذه الشجاعة التي رأينا وصفها لأن الشجاعة فطرة قلوبهم ، والموت في ساحة الشرف والواجب صبغة نفوسهم . وأظهروا خلق الشّم والترفع لأن الخلق الكريم شيمته لهم وجبلة فطروا عليها .

وتلك أسمى آيات الشجاعة ، وهذه غاية الغايات في أصالة الخلق وطهارة النفس واستقامة السلوك .

فى الإسكندرية أحسنت أيتها الجندى المصرى...!

جاء يوم ١١ يوليو من سنة ١٨٨٢ وقد أحكم الأميرال سيمور تدبيره لضرب الإسكندرية، ولم تكن المدينة ولا حاميتها مهيئة لهذا العدوان الذى لم يكن له مبرر ما. وقد اعترف الأميرال سيمور نفسه فى تقاريره التى رفعها للأمرالية البحرية بعد غزو الإسكندرية بأن القوى لم تكن متكافئة، ومع ذلك فقد شهد شهود العيان الذين اشتركوا فى هذا العدوان، بأن جنود الحامية المصرية دافعوا دفاعاً مجيداً مشرفاً عن وطنهم وعن شرفهم العسكرى



كانت حامية الإسكندرية تتكون من مجموعة قلاع تمتد من طابية السلسلة إلى طابية العجمى، وكان يدافع عن هذه الحصون ٨٧ و٩٤ من الضباط وصف الضباط والجنود، منهم المصرى ومنهم السودانى والمغربى، ومنهم الشركسى، وكان من ضباط الحامية القائم مقام محمد نسيم بك والد المغفور له توفيق نسيم باشا؛ أحد رؤساء الوزارات المصرية السابقة، والبكباشى سيف النصر أفندى، والد المرحوم حمدى سيف النصر باشا وزير الحربية الأسبق. وبدأت بوارج الأسطول الإنجليزى تلقى قذائفها على طوابى الإسكندرية من الساعة السابعة صباح يوم ١١ يوليو، فلم تجب عليها الحامية

إلا بعد القذيفة الخامسة ، وبعض الطوابى لم تبدأ قذف قنابلها إلا بعد العاشرة . وكان الخديو ومجلس وزراء مصر قرّرا ذلك ناسئة عرابي ، لتسجيل العدوان على الإنجليز . وفي الساعة السادسة من مساء اليوم ؛ نفسه سكّنت القلاع المصرية التي كانت مدافعها قديمة مكشوفة ضعيفة التحصين لم تعد لمثل هذا الهجوم الغادر ، ولكن هذه القلاع والطوابى لم تسكت إلا بعد أن سجل رجالها من ضروب الشجاعة والبراعة والمقدرة ما يشرف مصر ويشرفهم ، وقد سقط منهم قتلى في ميدان الشرف ٧٠٠ ؛ ومات من الإنجليز خمسة وجرح ثمانية وعشرون . وفي هذا أكبر دليل على فقدان التكافؤ ، بل التقارب ، بين قوى الفريقين ، وعلى مبالغ الشجاعة والتضحية التي اتصف بها جنود هذه الحامية .

* * *

أرسل الأميرال سيمور ، قائد الأسطول المعتدى ، كتابا إلى الأميرالية البحرية البريطانية تاريخه ١٤ يوليو من سنة ١٨٨٢ بعد انتهاء المعارك ودخول الإنجليز الإسكندرية قال فيه :

« ولقد قاتل المصريون قتال الأبطال بأقدام ثابتة ، وكانوا يحاربون النيران الشديدة التي تصبها على حصونهم مدافعنا الضخمة إلى أن قتل عدد كبير منهم » وأرسل تقريرا آخر إلى الأميرالية بتاريخ ٢٠ يوليو قال فيه عن إحدى

طوبى الإسكندرية : « وكانت حركات بطاريات حصن الاسبتالية من البداية إلى النهاية تساس بطريقة موفقة جداً ، ومع أن هذا الحصن أسكت وقتاً ما على إثر ضربة من المدرعة انفلكسيبل ، فإن جنوده لم يتخلّوا عن مدافعهم إلا بعد أن أكرهتهم نيران مدافع هذه المدرعة والأسطول الخارجى على التخلي عنها . »

وكان يشهد الموقعة ميجر من رجال الخببرات البريطانية اسمه « تلك » وقد ألف بعد ذلك كتاباً سماه « ذكريات أربعين عاماً في الخدمة » فكتب فيه صفحات كلها فخار لحامية الإسكندرية المصرية وتقدير لبطولاتها ، ومما قاله في ذلك :

« وعندى أنه لا يستطيع إلا القليل من الناس أن يؤدوا واجباتهم بمثل ما أداها أولئك الجنود الذين كانوا في الحصون في ذلك اليوم . وليس في مقدور الإنسان أن يخفى دهشته وإعجابه من أن هؤلاء الجنود في الحالة التي كانت فيها النيران تتحيفهم من كل جهة ، أرادوا أن يرفعوا أحد المدافع من سقطته التي سقطها ، وفي حالة أخرى ، وهم في معمة القتال ، حاولوا أن يرجعوا مدفعاً إلى موضعه ، وهم تحت وابل من النيران ^(١) » .

(١) ص : ٢٨٦ من الكتاب .

وكان جودريتش ، أحد رجال البحرية الأمريكية ، يشاهد المعركة من ظهر السفينة الحربية الأمريكية « لانكاستر » فكتب تقريراً قال فيه :

« ... وجاوب المصريون — رغم التفاوت الذى كان بينهما من ناحية عيار المدافع — على النيران المتدفقة من أفواه مدافع الأسطول الإنجليزى إجابة مذهشة لم تكن متوقعة بقاتاً ، وبشجاعة تستوجب الإعجاب .

وعندما كانت المدرعة انفلسكيبيل ترسل مقذوفات زنة كل منها ١٧٠٠ رطل . على حصن الفنار وتصيب سائر فتثير الانقاض والأتربة إلى ارتفاع الفنار نفسه ، ويخيل للمرء عند ذلك أنه ليس من الممكن أن يعيش إنسان تحت نيران كهذه ، لا يلبث بعد دقائق ، عندما ينقشع الغبار أن يرى جنود المدفعية المصرية ملازمين مواقفهم يطلقون قذائفهم على خصمهم الرهيب . »

وكذلك شهد بمثل هذه الشهادات التى تبيض لها الوجوه ، البارون الإنجليزى ديكىوزل بك ، وكان وكيلاً لمصلحة الجمارك المصرية ، وشهد (م ٢ — بطولات عربية)

المعركة من على ظهر السفينة تنجور ، إحدى سفن الأسطول المعتدى^(١) ،
وشهد بمثلها مسمو سكوتيدس ، وكيل قنصل اليونان في الإسكندرية
إذ ذاك^(٢) .

وقد قال إن جنود الحامية المصرية كانوا في ذلك اليوم « يمثلون
— بحق — الأبطال الذين يدفعون غارات الجبابرة » .

* * *

وإني لا أستطيع — وأنا أقرأ هذه الشهادات عن بعض أبناء وطني —
أن أترك شهادة أشعر بنشوة وفتار وراحة قلب ، كما قرأتها ، وأريد
أن أشعر بمثلها قلوب العرب جميعا .

« لقد عجبت من هذه البطولة التي لا يمكنني أن أدرك كنهها ، والتي
كان يتحلى بها الجنود الذين يطلقون مدافع حصن « الامة » . كما عجبت
أشد العجب من الموقف الذي وقفه قائد هذا الحصن قرب سارية علمه ،
وهو بمفرده والمنظار في يده ينظر به الأثر الذي أحدثته المقذوفات التي كانت
تنطلق . لقد كان حقاً رجلاً شجاعاً متحدّياً تلك القذائف التي كانت تسقط
على حصنه فيجيب عليها » .

(١) أنظر ص : ٢٠٠ من كتابه : « ذكريات رجل إنجليزي عن مصر » .

(٢) أنظر ص : ١٦٨ — ١٦٩ من : « مصر المعاصرة وعرايى باشا » .

وقد ظل هذا الحصن يقاوم باستماتة وعناد وإصرار حتى أصيب مستودع الذخيرة فيه إصابة مباشرة فنفسف. وقتل فيه عدد كبير من الضباط والجنود. أما هذا الضابط البطل ، قائد هذا الحصن ، فقد وصف الكابتن وولتر جود — خصمه وغريمه ومحاربه — وصف هذا الكابتن الإنجليزي شجاعته واستشهاده في هذه الكلمات البسيطة الرائعة :

«و الضابط الذى كان واقفاً فيه وقفة الأسد فى عرينه ، طار فى الهواء هو وسارية علمه ^(١)»

وقد تجمعت لضرب هذا الحصن وحده خمس بوارج من أقوى بوارج الأسطول الإنجليزي ، ولم يعرف اسم قائده البطـل الذى مات هذه الميـتة المشرفة .

والكلمات التى أختتم بها هذا الفصل هى صورة رائعة كتبها الميجر « تلك » Tulloch ، رجل الخبرات الإنجليزي الذى رأينا شهادته فى أول هذا الحديث :

(١) تقرير الكابتن وولتر جود سول قومندان البخرة « تشلزن »

« لقد كان حقاً من العجب العجيب أن أرى هؤلاء الجنود ، رغم شدة
الضرب ، واقفين في أماكنهم ملازمين مدافعهم ، وقد رأيت أكثر من
مرة قذيفة من قذائفنا تدخل في إحدى كوات مدافعهم فقلت في نفسي :
لقد قضى على هذا المدفع وأمسى في حيز العدم . ولكن لم ألبث بعد ذلك
أن أقول : كلا ! ثم كلا ! فقد كان الجواب من هذا المدفع يعود في الوقت
الملائم ، وقد أتى مرة من المرات بسرعة فائقة جداً ، حتى لم أتمكن نفسي
فوثبت إلى حافة السفينة ورفعت يدي صائحاً : لقد أجسدت العمل أيها
الجندي المصري . . . »

وأعتقد أن القاريء سيعجب مثلي لروح هذا الإنجليزى الذى لا يستطيع
أن يخفى سروره وإعجابه بالعمل الجيد ولو كان من عدوه .

الهزيمة ليست عيباً ولا معرة ، ولكن المعرة والخزي هما الإستسلام
لها والرضى بنتائجها .

شجاعة وشرف

وقفت حامية الأسكندرية وأبطالها — وخاصة رجال حاميتي حصن
« ألاتة » و « الاسبتالية » — هذا الموقف الخالد المشرف الرائع ، ومن
ورائها شعب مصر المناضل الصبور .

ودافع عرابي وجيشه وشعبه بعد ذلك في « كفر الدوار »
و « التل الكبير » .

وايس من شأنى الآن أن أفصل أسباب تلك الهزيمة التى أصابت
جيش العرابيين وشعبهم يوم ذاك . ولكننا نعرف ويعرف الناس أن من
أقوى تلك الأسباب : « الخيانة » .

* * *

دخلت الجيوش الإنجليزية القاهرة ، واستولت على البلاد كلها ، وعاد
توفيق ، الحاكم الخائن ، إلى قصره فى عابدين يجلس على عرشه الزائف
المخدول ، بعد أن كان يسهر الليل فى « رأس التين » متربصاً خائفاً يرقب

البحر ويهون على نفسه الأسرويمدة لها حبل الأمانى بأن ينتصر الإنجليز؛
فيحكم ويتسلط وينتقم ، ولو أنه انتقام الذليل ، فإن هزم الإنجليز ركب
معهم البحر وفارق .

وانتصرت الخيانة والغدر ، وانتهت الثورة العرابية إلى حيث نعرف ،
وذهب عرابى — كما يذهب المهزم الشريف الشجاع — إلى خصمه
وعدوه الغالب . يضع نفسه تحت تصرفه أسير حرب . ودخل عرابى على
عدوه الغالب الجنرال « رورى لو » فى ثكنات قصر النيل يلبس ثيابه
العسكرية ويحمل سيفه . وكان معه طلبه باشا شريكه فى الثورة وفى الحرب
وجيء بالزعيمين الشريفين إلى مجلس القائد المنتصر فسألا سيفيهما إليه .
وأمر القائد بحبسهما فى إحدى حجرات « قصر النيل » .

ولم يستطع شعب القاهرة أن يقبل الهزيمة أو أن يستسلم . فثارت فى
شوارعها وطرقاتها الثورات ، وخرج الناس فى « باب الشعرية »
و « الحسينية » خاصة يحملون العصى والهرافات والأخشاب يحاولون أن
يقفوا بها فى وجه الجنود الإنجليز . وكانت حركة فيها من ثورة الغضب
وفورة العاطفة أكثر مما فيها من السداد والحكمة . فعالجها محافظ العاصمة :
إبراهيم بك فوزى ، حتى صرف التأثيرين عنها .

وكان من رأى محمود سامى البارودى أن يستمر الدفاع عن أرض الوطن ، بعد تسليم القاهرة ، وأن ينسحب الجيش والشعب المحارب إلى الصعيد ، ثم إلى السودان إذا لزم الأمر ، وأن تغرق مديرتى الشرقية والدقهلية بماء النيل لتعويق الجيش الإنجليزى وتأخير زحفه إلى داخل البلاد . وأن توسق جميع السفن بالذخيرة وتوجه إلى الصعيد لتكون تحت تصرف الجيش والمحاربين . ولكن رأى البارودى هذا لم يلق قبولا .

هكذا انتهت الثورة العربية ، وانتهت أعمال المقاومة الرسمية والشعبية . وأصبح زعيم الثورة ومناصروه : عربى وإخوانه ، فى سجن الإنجليز . وكان من الممكن أن يعامل هؤلاء الأبطال وزعيمهم معاملة الجندى الشجاع الذى خانته أقداره ، فسلم نفسه أسير حرب . كان يمكن أن يلقى عربى معاملة كريمة أولائقة ، كما يستحق أن يلقى محارب شجاع شريف ، دافع عن وطنه وشرف قومه ، ولعل بعض القواد من الإنجليز كان يريد ذلك ويعتقده . ولكن كان من ورائهم خبث السياسة الإنجليزية وشرها . وكان من وراء هذا وذاك حقد توفيق .

وألقت المجالس العسكرية وأجريت المحاكمات لعربى وإخوانه ، وكانت محاكمات صورية لاصلة لها بالعدالة ولا بالحق والشرف . فإن محاكمة عربى ، مثلا لم تستغرق سوى ساعة من نهار !

وليس هذا الفصل خاصاً بمحاكمة عرابي ، بل نريد أن نعرض فيه صورة من أبرز صور الشجاعة والشرف التي شهدتها هذه المحاكمات ، والتي كان أبطالها رجالين من مناصري هذه الثورة ومؤيديها . وهما رجلان ، بل بطلان ، من رجال هذا الشعب الذي لم يفتر يوماً عن مناهضة جلاّديه .

إن في طيّ تاريخنا الحديث فصولاً رائعة لكفاحنا وجهادنا لا تزال مطوية ، لم تدرس ولم تعرف ولم تقدر قدرها ، وفي طياتها بطولات لرجال ضحوا بأموالهم وأرواحهم في سبيل هذا الكفاح ، لا تزال سيرهم وقصص بطولتهم مطوية لم تدرس ولم تعرف ولم تقدر قدرها أيضاً ، وقد ترجمت لبعضهم من قبل^(١) ، ولكنني أعتقد أن أمام الباحثين الجادين من ذلك شيئاً كثيراً .

وهذان البطلان اللذان أتناول موقفهما اليوم في المحاكمة يضربان للناس مثلاً من أعظم الأمثال .

هذان البطلان هما : السيد حسن موسى العقاد ، وكان من أكبر

(١) أنظر فصل : « زعماء وأبطال » في الجزء الثالث من كتابنا : « دراسات في تاريخ الجرتي ، مصر في القرن الثامن عشر » ص ١١٣ - ١٣٣ من الطبعة الثانية « البيان العربي » .

تجار القاهرة ، والشيخ حسن العدوى وكان من أكبر العلماء .

وقبل أن أذكر موقف هذين البطلين العظمين وشجاعتهم ، أشير إلى ملاحظة ذكرها عرابي نفسه في مذكراته ، هي أن موقف الشجاعة والبطولة أمام هذه المحاكمة ، هو المقياس الصادق لعظمة النفس ، فكم من رجال نصرُوا الثورة العرابية وآزروها إبان سلطانها بدافع الأمل أو الخوف أو المسايرة ، فلما فشلت ، وعادت إلى توفيق ، بحراب الجيش الإنجليزى ، سلطة البطش والقهر ، تنكروا للعرابين ، ونكصوا على أعقابهم واستذلوا لتوفيق ورجاله ، ووقف بعضهم أمام هذه المحاكمة يتنصل من « تهمة » مناصرة الثورة ، ويقسم أنه برىء منها « حباً في الحياة ، وخوفاً من بطش الغالبين » كما يقول عرابي :

أما حسن موسى العقاد ، والشيخ حسن العدوى فقد كانا رجلين من طراز آخر .

لما تمت هزيمة العرابيين ، أصدر توفيق في ٢٨ سبتمبر من سنة ١٨٨٢ أمراً بتأليف لجنة تحقيق مع الذين قاموا بها ، وإحالتهم إلى المحكمة العسكرية . وكانت لجنة التحقيق مكونة تسكوينا عجيباً مجحفاً . إذ كان رئيسها وأعضاؤها من العناصر غير المصرية ، التي قامت الثورة للقضاء على استبدادها وطغيانها .

كانت اللجنة مؤلفة على النحو الآتي: الرئيس اسماعيل أيوب باشا «شركسي» .
الأعضاء : علي باشا غالب «شركسي» . يوسف شهدي باشا «شركسي» .
محمد زكي باشا «أرنؤودي» . سعد الدين باشا «تركي» . محمد بك حمدي
العظم «غير مصري» . مصطفى بك راغب «تركي» سليمان بك يسري
«كردي» . مصطفى بك خلوصي «عجمي» . محمد بك مختار «تركي» .
وكانت المحكمتان اللتان ألفتا لنظر دعاوى المحاكمات على هذا النسق
ايضا . كانت المحكمة التي وقف أمامها حسن موسى العقاد والشيخ حسن
العدوي مؤلفة من : الرئيس محمد رؤوف باشا «كردي» الأعضاء : الفريق
إبراهيم باشا «تركي» . الفريق إسماعيل باشا كامل «شركسي» .
للواء خورشيد باشا كامل «شركسي» . سليمان نيازي باشا «أرنؤودي» .
عثمان لطيف باشا «شركسي» . سليمان بك نجاتي «شركسي» أحمد حسنين
باشا «مصري» .

فهذه إحدى «المحاكم» التي ألفت لتحاكم زعماء مصر بين على أرض
مصرية باسم «والى» مصر والتي حاكمتهم فعلا —

تؤلف من تسعة أعضاء ليس من بينها مصري ، ورئيسها كذلك ليس
مصرياً . بل عدو وخصيم لأهل مصر ، قام المصريون بثورتهم تلك للقضاء
على سيطرته وسيطرة بنى جنسه ، واستبدادهم العنصري .

وهذه هي « المحكمة » الثانية تؤلف من سبعة أعضاء كلهم غير مصري سوى عضو واحد ، قد يكون مصرياً بالنسبة والمولد ، ولكنه أجنبي القاب والعاطفة . ولذلك اختاره توفيق . أما الباقون ورؤيسهم فكانهم عدو لمصر خصيم . يمتليء قلبه بالغیظ والحقد على زعماء ثورتها الذين يحاكمهم .

ألفت المحكمة على هذا الوجه . وجاء دور السيد حسن العقاد ليقف أمامها ليسأل عن كثير من التهم و« الجرائم » التي ارتكبها بمناصرته الثورة العرابية .

يقول عرابي في مذكراته التي سماها : « كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية » : أن السيد حسن العقاد عندما وقف أمام هذه المحكمة تليت عليه رسائل ضيقت عنده . يصف فيها توفيق بأنه « أهبل » وأنه لم تعد له ولاية على مصر . فقد خرج على الشرع والقانون بانضمامه للإنجليز ، وأن أوامر توفيق ومنشوراته لم يبق لها أي اعتبار ، بعد خلعه من ممثلي الشعب . فقال حسن العقاد إنه هو الذي كتب هذه الرسائل - مع أنها لم تضبط بخطه - واعترف بأنه وقع قرار عزل الخديوي راضياً مختاراً وسئل عن أموال كثيرة طائلة أنفقها من تجارته الواسعة ، ولم يبين في سجلاته مصادر إنفاقها ؛ فقال إنه أنفقها في سبيل الثورة العرابية .

وأمام هذه المحكمة ، كما سجل عرابي أيضا ، اعترف الشيخ حسن العدوى بأنه قصد إلى « كفر الدوار » — والحرب دائرة فيها بين الإنجليز وعرابي — ليشجع الوطنيين ويثبت أقدام الجيش المصري ويبث الدعوة بين جنوده ضد توفيق . وأنه وقف في المؤتمر الذي عقده العراقيون فأعلن وجوب المقاومة ومواصلة الحرب — على الرغم من إعلان توفيق أن الإنجليز أصدقاؤه وحلفاؤه . وأمره للمصريين بالكف عن المقاومة — وأنه أرسل إلى عرابي ، والحرب قائمة ، رسائل يشجعه فيها ويؤازره ويدعوه بالنصر على توفيق . وأنه وقع قرار عزل الخديوي راضيا مختاراً .

وأبلغ من هذا في الدلالة على شجاعة الشيخ حسن العدوى وعظمة نفسه ، أن المحكمة سألته عن فتوى قيل انه أصدرها بعزل توفيق شرعاً . فقال : إني لم أصدر هذه الفتوى لأن أحدا لم يطلبها مني . ومع ذلك لو قدمت لي هذه المحكمة فتوى بعزل توفيق ، لما ترددت في توقيعها . وليس في وسع هذه المحكمة — وأعضاؤها مسلمون — أن تنكر أن الخديوي توفيق مستحق للعزل ، لأنه خرج على الدين وعلى الوطن .

هذان مصريان ، أحدهما تاجر كبير ، وثانيهما عالم كبير ، يضربان هذا المثل الرائع للشرف والرجولة والتحدى ، فإذا أردنا أن ندرك مافي هذا

الموقف من البطولة ، يجب أن نذكر إلى جانبه الملايسات التي كانت تحيط به وبهما . فهذه ثورة قد فشلت ، وهزم قائدها ورجاله واستسلموا وسلموا أنفسهم ، أوقفوا عليهم ، أوفروا واختفوا ، وهؤلاء الإنجليز يستولون على أرض الوطن ويحكمونه قاهرين ظافرين ، بما عند الظافر القاهر من شرّ وجبروت . وهذا عدوهم توفيق يحكم ويتسلط ، وتمحكم في قلبه ودمه عواطف الحقد والانتقام والإثم . وهذه جنوده ورجاله يفتشون ظهر الأرض وينبشون ، باطنها ليبطشوا بمن يقع في أيديهم من العربيين ومناصريهم . حتى بلغ عدد من قبض عليهم بهذه التهمة تسعة وعشرين ألفاً . وهذه محاكم الإنجليز وتوفيق تؤلف وتؤلب على ما ذكرنا ووصفنا .

في هذا الجوّ وبين هذه الملايسات التي هزت كيان كثيرين وزعزعتهم ، كما قال عرابي ، وقف حسن موسى العقاد والشيخ حسن العدوي هذا الموقف ، الذي يبلغ غاية المدى في تحدّي توفيق وشرّه وحقده وجبروته ، ومن ورائه سطوة الإنجليز . لذلك يبلغ موقفهم هذا غاية المدى في الشرف والرجولة والشجاعة وعظمة النفس .

عراي الفلاح

قبل عشر سنوات نشر أمير من أعضاء أسرة محمد على السابقة مذكراته في صحيفة مصرية ، وكان صاحب هذه المذكرات أكبر أعضاء هذه الأسرة سنًا ومكانة.

أخذ صاحب المذكرات يتحدث عن مزايا أبيه توفيق وفضائله وخصاله ويذكر مواهبه وثقافته و «أياديه» على مصر وشعبها . ثم يتحدث عن الأخطاء القليلة التي وقع فيها أبوه ، فقال الأمير السابق صاحب المذكرات : إن أكبر الأخطاء التي ارتكبها أبوه الخديوي توفيق أنه أنعم برتبة الباشوية على «الفلاح» عراي ! ...

يكتب هذا أمير كان يزعم أنه «مصري» وينشره في صحيفة مصرية تصدر في مصر ليقرأها المصريون «رعية» هذا الأمير ورعية أبيه وأسرته ، ينشره على أهل مصر في منتصف القرن العشرين ، حيث كان العالم — وما زال — يفور ويمور بعواطف القومية والديمقراطية والمساواة والتخلص من التمييز والسيطرة والاستعلاء .

يصف الأمير السابق « عرابي » ، بل يعيرته ويسبهه ، بأنه « فلاح » ويرى أكبر أخطاء أييه أنه « تفضل » فأنعم على هذا « الفلاح » برتبة رفيعة لا يستحق أن يقال شرفها مصرى ، ولا يرى الأمير حرجاً ولا بأساً في أن يعير المصريين جميعاً ويستهم بهذا الذى كتب .

وسنرى ، بعد الانتهاء من هذا الحديث ، كيف كان عرابي يعتز بنسبته إلى هؤلاء « الفلاحين » .

في ضحى اليوم الثالث من ديسمبر سنة ١٨٨٢ عقد ، في مبنى وزارة الأشغال الحالى بالقاهرة ، مجلس المحاكمة والذى تألف لمحاسبة عرابي ، ولم يعلن موعد المحاكمة ، فلم يشهده سوى أربعين ، نصفهم من مراسلى الصحف . وكان المقرر أن يتولى إعلان الاتهام أمام المحكمة رئيس قضايا الحكومة : المسيو بوريللى . ولكنه اعتذر عن ذلك لإحساسه بانحراف التحقيق والمحاكمة معاً . فابتعد بنفسه عن أن يشترك في مهزلة مخزية ، فجلس مكانه قومندان الحامية الإنجليزية ١٠٠٠ !

— خصماً وحكماً فى وقت واحد — ثم جيء بعرابي من سجنه ... وكان قد وقع وثيقة يعلن فيها عصيانه على توفيق ، وأخرى يتعهد فيها بأن يلزم الملبكان الذى تحدده الحكومة الإنجليزية لأقامته . وبعد إعلان الاتهام

والوثيقة التي يعترف فيها عرابي بعصيانته ، طلب عرابي أن يتولى محاميه الدفاع عنه . ولكن المحكمة لم تجب ، ورفعت الجلسة إلى عصر اليوم نفسه . فلما أعيدت نطق رئيسها بالحكم على عرابي : الإعدام . وبعد ذلك أعلن أن توفيق تعطف فأبدل حكم الإعدام بالنفي مدى الحياة ، تم ذلك كله في عشر دقائق ، ثم رفعت الجلسة .

وأبعد عرابي إلى جزيرة سيلان فبقى فيها نحو عشرين سنة .

وقد ظل اسم عرابي بعد ذلك باقياً مذكوراً في التاريخ المصري الحديث مابقى في مصر شعور بالقومية المصرية أو العربية . وسيظل هكذا على الدوام . وستظل الحركة العربية أو « هوجة عرابي » كما سماها معاصروه ، باقية مذكورة في ضمير الشعب المصري وتاريخه ، حية على لسان أفراد وفي قلوبهم بعد أن تحققت لمصر الحياة الحرة والسيادة التي جاهد عرابي لهما ، ولقى في سبيلهما ما يلقي المجاهدون الأحرار .

سيظل اسم عرابي مذكوراً في ضمير الأمة المصرية والعربية كبطل ، ومثل للشجاعة والكفاح والإخلاص . وستظل ثورته رمزاً روحياً لأول حركة قومية قوية خالصة . وأول « تنبه » عام وإحساس شامل بالقومية المصرية في العصر الحديث . وأول هبة لتحقيق السيادة المصرية للدم المصري .

وقد كتب الكتّابون والمؤرخون ، البحوث والتحقيقات عن عرابي
البطل وعن ثورته . ولكنني عرفت ، بمصادفة موفقة ، حديثاً عن العظمة
النفسية ، التي كان يتميز بها عرابي ، وعن الشعور الراسخ بالعزة الذاتية ،
التي كان يحسّها لمجرد أنه مصري وفلاح .

وقد بلغ عرابي من الرفعة والمجد ما بلغ ، وارتفع اسمه وعلا شأنه ،
إلى حيث علا وارتفع ، ولكن هذا كله لم يغير من نفسه ولا من شعوره ،
واعتزازه وفخاره بأنه مصري وفلاح ، بل لقد جعل عرابي نسب فخره أنه
فلاح تحدر من أصلاب الفلاحين ، ونشأ مثلهم ومعهم بين الماء والطين .
قبل عشرين سنة عرفت شيخاً معمرأ في قرية « هرية رزنة » ،
قرية عرابي ، على بعد أميال ثلاثة من الزقازيق ، وكان قد جاوز المائة
وتوفاه الله بعد ذلك بقليل .

هذا المعمر : « الشيخ علي نجم » كان في قريته تلك صاحب « كتاب »
تعلم فيه وحفظ القرآن صبياً هذه القرية وما يجاورها جيلاً بعد جيل ،
وكان أبوه من قبله معلماً وصاحب « كتاب » .

وقد قدّر لي أن أجلس إلى هذا الشيخ المعمر ، قبل أن يتوفاه الله
بقليل ، وأن يحدثني عن ابن قريتهم : « عرابي » وأنه كان يتعلم القراءة
(م ٣ — بطولات عربية)

ويحفظ القرآن في كِتَاب أبيه ، وكان « عرابي » يصُغره سنّاً وإدراكاً ، ويتخلف عنه في الحفظ . فكان محدثي الشيخ - رحمه الله - « عريفاً » عليه ، كما يقولون في لغة كِتَاب القرية لذلك العصر .

وبقيت العلائق بين « العريف » المعلم الشيخ علي نجم ، وبين زميله وتلميذه أحمد عرابي ، حتى انتهى هذا لما بلغ من مجد ومنزلة ، وكان من خاتمة الثورة العرابية وخاتمة عرابي ما نعرف . ونفى عرابي إلى جزيرة سيلان ثم أعيد منها بعد عشرين سنة .

قال المعمر الشيخ ، رحمه الله :

وقصدت ومعى زميل من شيوخ « هرية رزنة » نهبط مصر لنرى عرابي باشا بعد رجوعه من المنفى ، وكان اليوم يوم الجمعة ، وحل علينا وقت صلاتها قريباً من عابدين ، فدخلنا مسجداً نصلي ، فإذا بنا ونحن خروج ننتقل أحذيتنا على باب المسجد ، نرى عربية تقف أمامه وقد صعد إليها رجل كبير ضخّم الجثة ، عرفته حين رأيته ، فقلت لصاحبي الشيخ : أليس هذا عرابي . ؟ لقد تغير كثيراً وكأنه لم يعد يبصر . فقال صاحبي بعد صمت : ألا ترى من الخير لنا أن نعود فلا نذهب إلى بيت عرابي ؛ فإنّي لا أستطيع أن أراه هكذا في ختام أيامه ، كسيراً مخذولاً مهيبضاً ، وهو

هوق ذلك أعمى ، ثم يقول رفيقى : وهل تظن أنه يعرفنا بعد كل هذه السنين ، وهذه الأحداث والحن ، وهذه الغربة الطويلة . ؟ إننا نخجل أنفسنا حين نعرض عليه أو يستأذن لنا منه فلا يذكر أشخاصنا أو أسماءنا ، فلم بنا نعود ، قال محدثى : ولكنى عارضت صاحبى وشجعتة وقلت له : لقد جئنا إلى القاهرة لنزور عرابى ، ولا بد إن شاء الله أن نزوره . وقصدنا إلى بيته فى شارع خيرت ، بعد صلاة الجمعة بساعات .

نما قدمنا منزل عرابى استقبلنا على بابه بعض الخدم ، واستقبلنا واحد من أبنائه وهو لا يعرفنا . فلما عرفناه بأنفسنا قال : إن الباشا ليس فى البيت . وترك لنا أن نجلس أمام البيت على « دكة » البواب حتى يعود فيستأذن لنا عليه الخدم ، فجلسنا وقد نظر إلى صاحبى كأنما يذكرنى بما قال ونحن نترك المسجد حين رأينا عرابياً وهمّ بنا صاحبى أن نعود .

وقفنا على هذه الحال إلى حائط البيت فترة ما بين الحيرة والتردد ، وبعد لحظات انتهت إلى الباب ووقفت عربة عرابى ونزل منها يتمهل ، ووقع بصره علينا ، وبعد دقيقة أو دقيقتين ، وقد هممت بالتقدم للسلام عليه ، نادانى : ألت أنت « عريى » الشيخ على نجم . ؟

وسألنى وصاحبى عن خبرنا ، فقصصت عليه كيف جئنا وما قال لنا

خدمه وابنه . وكنا دخلنا معه وأجلسنا إلى جواره . فلما سمع قصتنا تغير لون وجهه وظهر عليه الغضب ، ثم وقف ووقفنا . وعاد بعد ذلك إلى أول الحديقة فنادى ابنه الذى استقبلنا وطالب معه جميع من فى البيت من إخوته . ثم وقف ووقفوا جميعاً أمامه صفّاً واحداً ، فحدثهم باللغة التركية حديثاً طويلاً كان فيه على الصوت ظاهر الحدة والغضب ، وهم وقوف أمامه صفّاً ورؤوسهم على صدورهم ، مشتبكة أيديهم كأنهم فى صلاة . ثم أنهى حديثه معهم باللغة العربية ، وقد فهمنا عند ذلك سرّ غضبه وما حدث به أبناءه — وخدمه واقفون — باللغة التركية . وكان ختام حديثه لأبنائه — كأتى أسمعه الآن — يقول مشيراً إلى وإلى صاحبي : هذا زميلى فى الكتاب ، وهذا عريقى جلست إليه يسمع منى القرآن ، فهو معلمى . وأنا فلاح ابن فلاح تحذرت من أصلاب الفلاحين فأنا بهم فخور ، فخور بأننى نشأت ولعبت فى الماء والطين معهم . وأنا عرابى باشا ، ولكنى قبل ذلك « فلاح » من قرية « هرية » . وهؤلاء الفلاحون هم أهلى وعشيرتى ومنبتى وشرفى ، ومنهم دى ، فمن جاء منهم لا يجلس بالباب .

ثم أمر أولاده فانصرفوا وهم سكوت مطرقون . ودخلنا فجلسنا وجلس معنا ساعات ، يحدثنا عن صبانا وأيام الطفولة ويسألنا عن رفقاء الكتاب . وأراد أن يستبقينا ليلتنا للبيت ، فشكرنا واعتذرنا .

ولما انصرفنا لم يتركنا عرابي حتى خرج معنا خطوات من حجرتة ،
واستحلفنا أن نعود إليه وأن يرانا .

قال محدثي المعمر الشيخ : ولم يشأ الله أن نزوره ولا أن نراه . ولكننا
نحبه كما كان يحبنا .

قات : يرحمك الله أبيها الشيخ كما يرحم الله عرابيًّا : البطل الفلاح .

شماير من القرن الثالث

في شهر شوال من سنة خمس وخمسين ومائتين ، خرج في فرات البصرة رجل زعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب ؛ وجمع الزنج^(١) الذين كانوا يسكنون السباخ وعبر دجلة فنزل الديناري ، وكان قد شخّص من سامراً سنة تسع وأربعين ومائتين إلى البحرين ، فادّعى بها أنه علي بن عبد الله ابن محمد بن الفضل بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب ، ودعا الناس بهجّر إلى طاعته ، فاتّبعه جماعة كثيرة من أهلها ومن غيرهم . وكان أهل البحرين قد أحلّوه بمحل نبي ، وجبى الخراج ونفّذ فيهم حكمه ، وقتلوا أصحاب السلطان بسبّبه .

ذلك هو مبدأ ظهور صاحب الزنج كما رواه ابن الأثير في تاريخه الكامل .

« وما زال يدعو غلمان أهل البصرة ويقبلون إليه للإخلاص من الرق

(١) الزنج : بفتح الزاى « وتكسر » جيل من السودان ، وهم الزنوج .
[القاموس والمصباح] .

والتعب ، فاجتمع عنده منهم خلق كثير فخطبهم ووعدهم أن يقودهم ويتآكلهم الأموال . وحلف لهم الأيمان ألا يغدر بهم ولا يخذلهم .

فهذا بدء ظهور دعوته في البصرة وارتفاع صوته وصوتها .

ولعل هذه الثورة التي نحاول أن نلخص خبرها ونخبر صاحبها في هذا الفصل ، هي أول ثورة في الإسلام ، قامت على أساس اجتماعي ، ويسمى المؤرخون العرب « فتنة الزنج » .

هي أول ثورة أشعلها في قلوب الناس ، بل المستضعفين منهم ، شعورهم بالظلم والهوان ، وقسوة المجتمع عليهم قسوة شاذة .

وقد بدأت هذه الثورة - كما تبدأ جميع الثورات - بإثارة الفكر ، والضمير ، والمنفعة : إذ بدأ صاحب دعوتها يحرك في نفوس أبأس الطبقات وأحققرهم شأننا في مجتمع ذلك العصر ، إحساسهم بالمدلة والفقر والصغار ، الذي وضعهم فيه مجتمعهم ، ويذكى في نفوسهم شعور السخط عليه ، وعلى الظلم ، وعلى سادتهم - بل أسيادهم ، فقد كانوا عبيداً - ويضئ في الوقت نفسه ، قلوبهم بالأمل في حياة أفضل وأكرم ، ينالون فيها الحرية ، والمال ، والعمل .

جمع صاحب هذه الثورة الزنوج - كما يقول الطبري - « وقام فيهم

خطيبا ووعدهم أن يقودهم ، ويرأسهم ، ويمتلكهم الأموال .

فهذا الثائر يريد أن يجعل من هؤلاء العبيد السود الذين يكسحون الأقدار ويحملونها ويعملون فيها طول يومهم ، ومن العبيد الآخرين الذين كان يشتريهم الناس ويبيعونهم ، يريد أن يجعل من هؤلاء وهؤلاء أحراراً يضع نفسه قائداً لهم ورئيساً عليهم ، وأن يمتلكهم الأموال بعد أن كانوا سلعة تملك وتهدى وتباع .

وقد قامت ، غير هذه الثورة وقبلها ، ثورات الخوارج ، والقرامطة ، والزط ، و بابك الخرمي وغيرها ، ولكن هذه الثورات لم يكن لها أساس اجتماعي ، بل كانت دوافعها عنصرية ، أو سياسية ، أو شخصية ، أو هذه كلها مجتمعة . أما ثورتنا هذه ، ثورة صاحب الزنج ، فقد كانت شيئاً آخر فريداً .

كان الزوج الإفريقيون يقيمون في مكان قريب من البصرة ، يسمونه « السِّبَاخ » ، وكان هذا الاسم مشتقاً من العمل الذي يقوم به هؤلاء الزوج ، وهو كسح السباخ والفضلات التي تتخلف في بيوت أهل البصرة ومرافقهم .

وفي سنة ٢٥٥ هـ ظهر بين هؤلاء العبيد السود - كما رأينا - رجل يرقى

بنسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب ، وهو ، مع هذا النسب الرفيع ،
يلقاهم ويتودّد إليهم ، ويشفق بهم ، ويشير في نفوسهم العزة ، والسخط
على حالهم ، ويدبّر لهم ومعهـم الأمر ليخرجهم من الرق إلى الحرية ، ومن
الجوع والتعب والخوف ، إلى الشعب والراحة والأمن والطمانينة .

وبدأ هذا الداعية دعوته سرّاً ، ويقول واحد من أوائل الذين
اتبعوه ، اسمه ربحان : « كنت موثقاً بـغلـمان مولاي — أي عبده —
أنقل لهم الدقيق ، فأخذني أصحابه فساروا بي إليه فسألني عن الموضع
الذي جئت منه ، فأخبرته . وسألني عن أخبار البصرة وعن الغلمان السود
وما يجري لهم ، فأعلمته » وبعد ذلك يقول إنه دعاه إلى دعوته فقبل ،
ثم طلب إليه أن يحتمل على من يستطيع من العبيد حتى يجيء بهم إليه ،
ووعده بأن يجعله قائداً على من يأتي بهم . ثم استخلفه ألا يخبر أحداً بمكانه
وخلّى سبيله .

وبدأت هذه الدعوة تثمر ثمرتها بين أهل السباخ من العبيد فيقبلون
على صاحبها ، فيتلقاهم ويحدثهم ، ويعدّهم بأنه سيجمعهم قوادة في جيشه ،
بل جيشهم ، ويملكهم الأموال ويقسم لهم أنه لن يتركهم ، ولن يغدر
بهم . ولن يخذلهم « ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى به إليهم » .

وبدأ صاحب الزنج يشعر بقوة ، وكثرة أتباعه من العبيد ، وإخلاصهم ، فآخذ يتهيأ لإعلان دعوته ، فلما أعلنها ، في عيد الفطر من سنة ٢٥٥ هـ كانت إعصاراً مدمراً ، بقي يقض مضجع الخلافة العباسية ، وينقص من أطرافها أربع عشرة سنة وأربعة أشهر ، وعشرة أيام .

استولى صاحب الزنج ، في سنتين اثنتين هما سنة ٢٥٦ - ٢٥٧ ، على مدن : الأبله وعبادان ، والأهواز ، والبصرة . ثم على واسط والبطيحة « بين واسط والبصرة » والنعمانية « بين واسط وبغداد على نهر دجلة » وحارب ، من قواد الخلافة العباسية وولائها ، سعيدا الحاجب ، وابن المدير ومسير المولد ، وموسى ابن بغا ، ومنصور بن جعفر بن دينار - وقد قتل في حربهم - وأبا الساج ، وأغرتمش التركي ، والموفق طلحة - أخا الخليفة المعتمد - والعباس ، ابن الموفق . وقتل بيده ويد الثأرين من أتباعه ، على بن يزيد العلوي ، صاحب الكوفة ، وشاركت في حرب هذه الثورة جيوش من الترك والعرب ، والأكراد ، سيطرتهم دولة الخلافة فكانت تلاقى من جيوش الثأرين كل هول وضراوة وقسوة .

وقد بقي الموفق ، أخو الخليفة المعتمد ، يحارب الزنج وصاحبهم ثلاث سنين . هزم فيها أكثر من مرة . وهم بالهرب أمام طوفانهم .

وفي هذه الحروب الطويلة الطاحنة . قتل من الناس خلق كثير .
قدره بعض المؤرخين بمليون ونصف ، وقدره آخرون بمليونين ونصف .
وقتل في هذه الثورة ، في يوم واحد ، كما روى المؤرخون ، ثلاثمائة ألف ،
وكان ممن قتل فيها أبو الفضل الرياشي النحوي المشهور ، وزيد بن أنزيم ،
الحافظ المحدث .

ولما ظهر أمر الثورة ، اشترك فيها غير الزوج من الناس . فنحن نجد
من حوادث سنة ٣٦٦ أن العرب أغاروا على ركب الحجاج وذهبوا بما
نهبوه إلى صاحب الزنج .

وقد ذكر المؤرخون شيئاً ، قد يكون صادقا أو غير صادق ، عن
صاحب الزنج وأصله ، وذكروا خروجه على الخلافة ووقائعه وحروبه مع
ولاتها وقوادها ، ومن قاتله منهم ، ومن قتل . ولكننا لا نكاد نجد
شيئاً عن جوهر دعوته وحقيقتها وأهدافها .

لا نكاد نجد سوى هذه القصة التي نلخصها أول هذا الفصل عن
حديثه مع ريجان ، وسوى هذه القصة التي رواها ابن الأثير ، والتي تدل
على أن صاحب هذه الثورة كان مؤمناً بدعوته أعمق الإيمان مؤثراً لها على
كل عرض من عروض الحياة ، مؤمناً بحق هؤلاء العبيد في أن تكون .

لهم الحرية ، والكرامة ، وأن بشعرهم لذّة العزة والسيادة ، حتى على أسيادهم السابقين .

خلاصة هذه القصة لابن الأثير ، أن الأغنياء لما أحسّوا خطر دعوته عليهم ، وأثرها في نفوس عبيدهم وخذّهم . وخروج الرقيق من بيوتهم وقصورهم ومزارعهم إليه ، ذهبوا يبذلون له عن كل عبد خمسة دنانير ، ليعيد إلى كل منهم عبده . فأراد أن يذيق هؤلاء الأسياد بأس ما صنعوا بعبيدهم . فبطح الأسياد على الأرض . وأمر جميع من عنده من العبيد أن يضربوهم بالسياط ... ! لكل سيد منهم خمسمائة سوط - أو « شطبة » كما يقول الطبري - بيد عبده ... ! ثم أطلق سراح السادة ... !

أما صاحب هذه الثورة فقد روى المؤرخون ، كما ذكرنا ، أنه قدم من سامرا إلى البحرين سنة ٢٤٩ هـ فادّعى فيها نسبه العلوي الشريف ، وينكر المؤرخون عليه هذا النسب ، ولكن « بروكلان » لا يستبعد ، وكان اسمه عليا بن محمد بن أحمد . ثم يقولون إنه بدأ دعوته في مدينة هجر فاتبعه كثير من أهلها ، ومن أهل البحرين وغالوا فيه ، وفتنوا به فتونا شديداً حتى أوشكوا أن يجعلوه نبيا . وقدّموا له أموال الخراج . فلما جاء إلى البصرة كان منه ومن أهل السباخ فيها ما أوجزنا خبره في هذا الحديث .

ومن الطبيعي أن يفتن الناس بهذا الثأر فتوناً شديداً ، وأن يستولى على عواطفهم وقلوبهم « حتى أوشكوا أن يجعلوه نبيا » ، فقد ظهر هذا الثأر بنسب شريف يرفعه إلى أقدس اسم عند المسلمين . نسب يصله بعلى ابن أبي طالب ، وفاطمة بنت النبي عليه السلام .

وكان آل عليّ وأولادهم - لفقرهم وحاجتهم - يتزوجون أو يتسرون الإماء السود لرخص مهورهم وأثمانهم . فكان كثيرون منهم - من العلويين - ينزع لونهم وسحنتهم إلى السواد وسحن أمهاتهم الزنجيات ، وكان ثأرنا ، علي بن أحمد ، يميل لونه إلى السواد ، فهو أقرب لونا وسحنة إلى هؤلاء العبيد الذين قام لتحريرهم . كما كان ثأرنا سينا قوى الحجة خلاب المنطق . لقيه جمع من الحجاج ، بعد استيلائه على البصرة وما جاورها ، فظال يحدّثهم عن دعوته وثورته .

وروى الطبري عن هؤلاء الحجاج إجمال هذا الحديث فقال : « فلما أتينا - أي التقى الحجاج بعلي بن أحمد - أمر فبسط له على نشزٍ من الأرض ، وقعد ، وكان في السفن قوم حجاج أرادوا سلوك طريق البصرة ، فناظرهم بقية يومه إلى وقت غروب الشمس . فجعلوا يصدقونه في جميع قوله وقالوا : [لو كان معنا فضل نفقة لأقمنا معك] فردهم إلى سفنهم » .

ومن هذا الوصف وهذا الحديث ، نعرف أن علي بن أحمد هذا ، حتى بعد استيلائه على البصرة وما يحيط بها من الأقاليم ، لم يعمد إلى الترف والاستعلاء ، بل ألزم البساطة والقصد والتواضع . فكان يحدث القوم وهو جالس على مرتفع من الأرض فرش عليه بساط أو حصير . ومن هنا كانت الملازمة قائمة قوية بين دعوته لتحرير العبيد والمستضعفين ، وبين أعماله ومظهره وتصرفاته . ومن هذا الحديث نعرف أنه كان يحدث القوم عن دعوته ليؤيدوها ويدخلوا فيها وينصروها . وقد تأثر الحجاج بمنطقه وخلا بته حتى أصغوا إليه أكثر يومهم إلى غروب الشمس وأنهم أظهروا اقتناعهم بهذه الدعوة وهذا المنطق حتى قالوا : لو أن معنا مالا نستغنى عنه لبذلناه لك . وكان عليّ يستطيع ، وهو صاحب الحول والقوة على البصرة وما جاورها ، أن يأخذهم بالقهر والعنف . وأن يفتش سفنهم وأحمالهم وثيابهم ، وأن يختبزهم ويضمهم إليه بالقوة إذا شاء . ولكنه آثر الحكمة والكمياسة فصدقهم في دعوائهم العجز والحاجة ، وتركهم أحراراً يسبغون إلى حيث يريدون ، ولا شك في أنهم كانوا بعد ذلك دعاة له معجبين بشخصه وإخلاصه ودعوته .

وهناك قصة أخرى رواها المؤرخون ، تدل على سماحته وكميسته وهي ،

في نفس الوقت ، تدل على إخلاصه لفكرته وعمق إيمانه بالدعوة التي
ثار من أجلها .

تقول القصة : إن علي بن أحمد جمع الأسياد الذين يملكون العبيد
وهذّدهم بالموت جزاء ما يلقي منهم عبيدهم من سوء المعاملة والقسوة ،
فقال : « قد أردت ضرب أعناقكم لما كنتم تأتون إلى هؤلاء الغلمان ،
الذين استضعفتموهم وقهرتموهم وفعلتم بهم ما حرّم الله عليكم أن تفعلوه بهم .
وجعلتم عليهم ما لا يطيقون ، فكلمني أصحابي فيكم فرأيت إطلاقكم » .
وكان عليّ يستطيع أن يقتل هؤلاء « الأسياد » ولكنه كان يريد
التقويم والإرهاب والتخويف .

وهذا الشريف العلوي الذي يثور ويقود الثورة ويشعل الحرب
غضباً لما يلقي العبيد من القسوة والأذى . يكتب عليّ رايته آية من
كتاب الله تدعو لأن يبيع المؤمن نفسه في سبيل الله وفي سبيل الحق ،
تلك الآية هي « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن
لهم الجنة » . ولعل ذلك كان أيضاً من أسباب نصرته وافتتان الناس به .

ولكنه مع كل ذلك ومع انتصاره ، كما ذكرنا ، على دولة الخلافة
سنوات عدة ، واستيلائه على رقعة فسيحة من أرضها — هزم في النهاية .

ولم تُقَمَّ بعده في العالم كله ، ثورة للعبيد أو من أجلهم ، إلا بعد ألف سنة .

ولم تخل دعوة علي بن أحمد ، كما يصورها ابن الأثير ، من شعوذة .
ودجل فقد زعم لنفسه الكرامات أو المعجزات حتى قال : إن غمامة أظلمته
وخرج منها صوت يتحدث إليه . وهي نعمة تعرفها تلك العصور وما يماثلها
في الجهالة ، يقول علي عن بدء دعوته : « إني فكرت في الموضع الذي
أقصده ، حيث نبت بى البلاد ، فأظلمتني غمامة وخطبت منها فقيل لى :
اقصد البصرة » . وهو في ذلك يزعم لنفسه منزلة النبوة ويتمنى أهل
البصرة .

وهنا يجب أن نلاحظ أن ابن الأثير والطبرى وغيرهما من المؤرخين
يكتبون — وهم يسجلون سيرة علي بن أحمد — عن ثائر خارج على خليفة
النبي وإمام المسلمين ، وأنه قد هزم آخر الأمر .

والناس من ياق خيراً قائلون له ما يشتهى ، ولأثم المخطيء الهبَل .
وقد ملأ صاحب الزنج هذا قلوب أنصاره وأتباعه بالسخط والثورة
والحقد ، وزادت الحرب التي قامت بينهم وبين جند الخليفة ما في نفسه
ونفوسهم من هذا السخط والحقد . فلم تخل ثورتهم وحربهم من العنف
والقسوة الفاجرة .

ففي شوال من سنة سبع وخمسين ومائتين ، اجتمع الأعراب من
البحرين ، بإمرة محمد بن يزيد الدارمي ، وتجمع عليهم كثيرون من مشاهير
أتباع صاحب الزنج ، وأحاطوا بالبصرة من أطرافها فدخلوها وقت صلاة الجمعة
في اليوم السابع عشر من شوال . وأباح صاحب الزنج لنوجه البصرة يوم الجمعة
وليلة السبت و يوم السبت يفعلون بها وبأهلها ما يشاؤون . . . ! حتى حرق
المسجد ، وأحرقت البصرة في عدة مواضع ، واتسع الحريق من الجبل
إلى الجبل .

وقدّمت الخدعة إلى أهل البصرة بأن من دخل دار فلان فهو آمن ؛
فجاء أهل البصرة قاطبة إلى دار الأمان ثم غدر بهم وقتلوا ، فكان السيف
يعمل فيهم وأصواتهم مرتفعة بالشهادة ، فقتل ذلك الجمع كله ولم يسلّم إلا
الناذر منهم . وعُظم الخطب بالقتل والتحريق والنهب ؛ فمن كان من أهل
اليسار أخذوا ماله وقتلوه ، ومن كان فقيراً قتلوه لوقتته . وبقوا كذلك
عدة أيام .

هكذا يقول المؤرخون .

ابن الرومي بصور صريع البصرة :

وكان يعيش في هذه الفترة من الزمن ويشهد هذه الأحداث المثيرة ،
(م ٤ — بطولات عربية)

شاعر من أعظم شعراء العربية وأبرعهم وأصدقهم إحساساً، هو ابن الرومي ،
وقد وصف دخول الزنج مدينة البصرة — وقت صلاة الجمعة — في قصيدة
من عيون الشعر وعجائبه ، وضوح بيان ، وقوة تصوير ، وإبداع خيال ،
وصدق عاطفة ، وهي من بدائع الشعر العربي كله .

وليس موضوع هذا الكتاب الأدب والشعر ، ولكنني أبيع لنفسي
أن أسجل قطعة كبيرة من قصيدة ابن الرومي هذه . لأننا نستدل منها على
شيء كثير في ثورة العبيد هذه وعما بلغت من العنف والشدة . ونذكر ،
قبل أن نتلو قصيدة ابن الرومي ، أن شأنه في موقفه من هذه الثورة ، شأن
الطبري وابن الأثير ، وغيرها ممن أُرِّخ للثورة وصاحبها . وقد كان هؤلاء
جميعاً يمثلون وجهة النظر « الرسمية » وينافخون عن الخليفة ، وعن المجتمع
الذي يعيشون فيه :

بدأ ابن الرومي قصيدته بهذه البداية الجازعة :

ذاد عن مقلتي لذيدَ المنام	شغلها عنه بالدموع السَّجام
أى نوم من بعد ما حلَّ بالبص	رة ما حل من هناتٍ عظام ؟
أى نوم من بعد ما انتهك الزند	يج ، جهاراً ، محارم الإسلام ؟

إن هذا من الأمور لأمر كاد ألا يقوم في الأوهام

ومن هذه البداية يشعر القارئ بما يريد ابن الرومي أن يوحى إليه من
الجزع والتهويل والتقديم لأمر عظيم « انتهكت به محارم الإسلام » حتى
أن هذا الأمر العظيم يكاد ألا تصدقه الأوهام .

ثم ينتقل بعد هذا الإيحاء وإثارة الغضب والسخط في قلب سامعه
وقارئه إلى وصف ما يريد فيقول مجملًا في بيت واحد :

أقدم الخائن اللعين عليها — وعلى الله — أيمًا إقدام

ثم يعود بعد هذا الإجمال البارع إلى مافي نفسه من الحزن واللاهفة على
ما أقدم صاحب الزنج من أمر فيقول هذه الأبيات :

لهف نفسي عليك أيتها البصرة لهفًا كمثل لهب الضرام

لهف نفسي عليك يا معدن الخيبة رات لهفًا يعرضني إيهامي

لهف نفسي عليك يا قبّة الإسهام لهفًا يطول منه غرامي

لهف نفسي عليك يا فرضة البلد دان لهفًا يبقى على الأعوام

لهف نفسي لجمعك المتفاني لهف نفسي لعزك المستعظام

بهذه اللهفات المتواليات قد هيأ ابن الرومي قارئه لأن يقرأ وصفه القادم

لما حلَّ بالبصرة ، وقد امتلأ قلبه بالغیظ والغضب ، الذى أوحاه إلینا فى مطلع قصیدته . ثم یقول :

بینما أهلها بأحسن حال
دخلوها كأنهم قطع الیاس

إذ رماهم عبیدهم باضطلام
ل إذا راح مدلهم الظلام

أى هول رأوا به أى هول
إذ رموهم بنارهم من یتین

حق منه یثیب رأس الغلام
وشمال ، وخلفهم ، وأمام

كم أغصوا من شارب بشراب
كم ضنین بنفسه رام منجى

كم أغصوا من طاعم بطعام
فتلقوا جبینة بالحسام

كم أخی قد رأى أخاه صریحاً
كم أب قد رأى عزیز بنیه

ترب الخد بین صرعى كرام
وهو یعلی بصارم صمصام

كم مفدى فى أهله أسلموه
كم رضیع ، هناك ، قد فطموه

حين لم یحمه ، هنالك ، حامی
بشبا السیف ، قبل حين الفطام

كم فتاة - بخاتم الله - بكر
كم فتاة مصونة قد سبواها

فضحوها جهرأ بغير اکتتام
بارزاً وجهها بغير لثام

من رآهن فى المساق سبايا
من رآهن فى المقاسم - وسط الزنج - یقسمن بینهم بالسهم

دامیات الوجوه للأقدام
بعد ملك الإمام والخدام

من رآهن یتخذن إماء

هذه القطعة من قصيدة ابن الرومي قد رأى فيها القارىء كيف دخل
الزنج البصرة وأهلها على أحسن حال ، فكان جيشهم كأنه قطع الليل .
وكيف أخذتهم نار الزنج من خلفهم وأمامهم ومن يمين وشمال . ثم هو يقدم لنا
هذه الصورة الشعرية الرائعة كأنها الرسوم أو التماثيل في قوة تصويرها .
فهذا شارب أو طاعم حين هجم عليه الزنج غصّ بشرابه وطعامه ، وهذا
هارب ضنين بنفسه قد جبهته سيوفهم وتلقّت جبينه ، وهذا أخ يرى أخاه
عريفاً قد عفر التراب خده بين كرام غيره ، معقرة خدودهم . ثم يقدم
إلينا صورة من تلكم الفتيات الأبكاء على خاتم الله قد فضحهم الزنج
وفضّوهم جبهة بغير اكتنام . ثم ساقوهم إلى السّبي يفرقونهم بينهم
ويقتسمونهم ممالك وكنّ من قبل يملكن الإماء والخدام .

ثم يعود ، بعد إبراز هذه الصورة القوية من السفك والقتل والعدوان ،
إلى شعوره النفسى يوحى به فيقول :

ما تذكرت ما أتى الزنج إلا أضرم القلب أئماً إضرار
ما تذكرت ما أتى الزنج إلا أوجعتنى مرارة الإرغام

ثم يرجع إلى ذكر صور مجملّة بعض الإجمال من بيع السبايا وتخريب
البيوت البارة كانت مأوى الضعاف والأيتام . ودخول القصور العامرة

كانت من قبل صعبة المرام . ثم يقدم لنا بعد ذلك صورة كلها حياة وكلها حركة وكلها دقة ووضوح ، وهي قوية غاية القوة عن مدينة البصرة وكيف كان زحام الخلق فيها وعمار أسواقها ، وتلك الفلك التي تسير منها وإليها بالتجارة والناس ، وتلك القصور ذوات الإحكام من بنيانها ، وكيف استبحال هذا كله — بفتنة الزنج — إلى خراب وصمت لا يرى فيه غير أيدي وأرجل مقطوعة ورؤوس مهشمة ووجوه دامية بين الخرائب تسفى عليها الريح :

عرجا صاحبي بالبصرة الزمراء تعريج مدنف ذى سقام
فأسألاها — ولا جواب لديها لسؤال — ومن لها بكلام ... ؟
أين ضوضاء ذلك الخلق فيها ؟ أين ذاك البنيان ذو الإحكام ؟
بدلت تلسم القصور تلالاً من رماد ومن تراب ركام
سلط البثق^(١) والحريق عليها فتداعت أركانها بانهدام
وخلت من خلولها ، فهي قفر لا ترى العين بين تلك الآكام
غير أيدي وأرجل بائنات نبذت ، بينهن أفلاق هام

(١) في القاموس [بثق النهر بثقاً وبثقاً وتبثاقاً كسر شطه ينبثق الماء] .
ولعل صاحب الزنج كان قد كسر « شط العرب » الذي تقع عليه البصرة ، فتصدق
صورة ابن الرومي عن حصارها بالماء والنار .

ووجوهٍ قد رملتها دماء بأبى تلـكم الوجوه الدوامى
وطئتُ بالهوان والذل قسرا بعد طول التبجيل والإعظام
فتراها تسفى الرياحُ عليها جارياتٍ بهبوةٍ وقتام
خاشعات كأنها باكيات باديات الثغور، لا لا بتسام...!

ولا شك فى أن القارىء يشعر بتلك القدرة الفائقة التى صور بها ابن
الرومى ذلك المشهد ، مشهد خرائب البصرة وقصورها التى أضحت تلالا ،
ومشهد تلك الأيدي والأرجل مبعثرة فيها قد نبذت يدين أفلاق هام ،
ومشهد تلك الهام ملقاةً خاشعةً باكيةً قد بدا منها الثغر وبرزت الفواجد
ولكن لا لتبتسم ... !

ثم ينتقل ابن الرومى بعد ذلك إلى ذكر مسجد البصرة وما حلّ به
فيقول مخاطباً صاحبيه أيضاً :

بل أليّا بساحة المسجد الجا مع إن كنفنا ذوى الملام
فأسألاه - ولا جواب لديه - أين عبّاده الطوالُ القيام ... ؟
أين عمّاره الألى عمّروه دهرهم فى تلاوة وصيام
أين فتياه الحسانُ وجوهاً ؟ أين أشياخه أولو الأحلام

إلى هذه الغاية يكون ابن الرومى قد أبرز تلك الصورة البارعة القوية

الصادقة عن وصف ما حلّ بالبصرة وأهلها على يد الزنج ، فهو ينتقل بعد ذلك الوصف إلى تهيج الناس وتحريضهم وإثارة نفوسهم على صاحب الزنج وزنوجه حتى يثأروا منه لأنفسهم وأهليهم . وهنا تبرز الغاية التي قصد إليها ابن الرومي ، ونعتقد أنه تعمدها حين بدأ قصيدته بتلك البداية ... وقد أشرنا إلى ما تشعر به من الرغبة في التحريض والإثارة ، حين ذكر ابن الرومي « محارم الإسلام » ، وحين قال بعد ذلك بيتاً قصدنا أن نسقطه من موضعه لنذكره الآن وهو :

وتسمّى - بغير حق - إماماً لا هدى الله سعيه من إمام

وقد ذكر هذا البيت بعد ذلك الذي يقول فيه إن الخائن اللعين صاحب الزنج قد أقدم عليها وعلى الله .

كل هذه الإيحاءات بالهياج والثأر يجعلها ابن الرومي دعوة صريحة في هذه القطعة التي ينتقل إليها بعد ذكر المسجد الجامع وعباده وفتيانه وشيوخه أولى الأحلام .

أى خطبٍ وأى رزءٍ جليلٍ	نالنا في أولئك الأعمام
كم خذلنا من ناسك ذي اجتهاد	وققيئ في دينه عـالـام
واندامى على التخلف عنهم !	وقليلٌ عنهم غناء ندامى

واحياي منهم - إذا ما التقينا
 أي عذر لنا ؟ وأي جواب ؟
 يا عبادي ! أما غضبتُم لوجهي
 أخذتُم إخوانكم وقعدتُم
 كيف لم تعطفوا على أخوات
 لم تغاروا لعثرتي ، فتركتم
 إن من لم يغر على حرُماتي
 كيف ترضى الحوراء بالمرء بعلاً
 وهم - عند حاكم الحكام
 حين ندعى على رهوس الأنام :
 ذي الجلال العظيم والإكرام
 عنهم - ويحكم - قعود اللئام ؟
 في حبال العبيد من آل حام ؟^(١)
 حرُماتي لمن أحل حرامي
 غير كفاء لقاصرات الخيام
 وهو - من دون حرمة - لا يحامي

ثم يقدم لنا ابن الرومي بعد هذا التحريض القوي هذه الصورة
 الباردة عن خصومة تخيل أنها واقعة بينه وبين النبي عليه السلام عن هؤلاء
 الشيوخ والفتيان وكيف لم يثار لهم :

واحيائي من النبي إذا ما
 وانقطاعي إذا هم خصموني
 مثلوا قوله لكم - أيها النبا
 « أمتي ! أين كنتم إذ دعيتكم
 لآمتي فيهم أشد الملام !
 وتولى النبي عنهم خصامي !
 س - إذا لآمتكم مع اللوام
 حرّة من كرائم الأقوام ... ؟

(١) تبدو في هذا البيت ، وفي بعض الأبيات السابقة واللاحقة أيضاً ، عنصريّة
 الثورة . « وأبناء حام » هم العبيد . وابن الرومي يدافع عن العنصر الآخر .

صرخت . يا محمداه ... ! فهلاً قام فيها رعاةُ حَقِّ مقامى ... !
لم أجبتها ، إذ كنت ميتاً ، فلولا كان حىَّ أجابها عن عظامى ! «

وأريد هنا أن أشير إلى براءة ابن الرومى إذ انتقل من خطاب نفسه
في الأبيات الأول إلى خطاب من يحرّضهم حين بدأ يصف خصومة النبی
عن قتلى الزنج فقال : « مثلوا قوله لكم أيها الناس » .

ثم يندرج ابن الرومى بعد هذه الإثارة وإهاجة النفوس للدعوة الصريحة
إلى الثأر من صاحب الزنج في هذه القطعة التى هى ختام قصيدته ، والتى
نكتفى منها بهذه الأبيات :

إنفروا - أيها الكرام - خفافاً وثقالاً إلى العبيد الطغام
أبرموا أمرهم وأنتم نيام ، سوءة سوءة لنوم النيام
صدّقوا الظنَّ إخوة أمتوكم ورجوكم لنوبة الأيام
أدركوا ثأرهم فذاك لديهم مثل ردّ الأرواح فى الأجسام
لم تقرّوا العيون منهم بنصر فأقرّوا عيونهم بانتقام
أنقذوا سببهم - وقلّ لهم ذاك - حفاظاً ورعية للذمام
عارهم لازم لكم ، أيها الناس ، لأن الأديان كالأرحام
لا تطيلوا المقام عن جنة الخلا د فأنتم فى غير دار مقام

فاشترى الباقيات بالعرض الأدنى ، وبيعوا انقطاعه بالدوام

هكذا ينتهى ابن الرومى من قصيدته فى رثاء البصرة وفيما أصابها
وأهلها من صاحب الزنج وفتنة الزنج وتحريض الناس على الثأر منه ومنهم .
وأعتقد أن القارىء يجد أنى لم أكن مغالياً حين قلت عن هذه القصيدة .
من شعر ابن الرومى إنها قصيدة عجيبة من غرائب الشعر العربى ، وضوح
بيان ، وقوة تصوير ، وإعجاب خيال ، وصدق عاطفة ، وأنها من بدائع
الشعر العربى كله .

وأزيد على ذلك أن ابن الرومى كان فى تحريضه الناس وتهيجهم
لهم ، ما كراً خبيثاً وقوياً عارماً شديداً التأثير ، يكاد شعره فى ذلك يدفعنا
نحن الآن - بعد أحد عشر قرناً - إلى الثورة والهياج .

بطل شحيد مجرول

قصة مؤامرة مخجلة ، دنيئة ، ذهب ضحيتها بطل شجاع من أبناء وطننا الذي كافح وجاهد وتعذب وشقى . أقدم على هذه المؤامرة ونسج خيوطها وقام على تنفيذها « جنرال » إنجليزى له فى تاريخ الاستعمار البريطانى صفحات وصفحات . وله فى تاريخ وطننا العربى ذكرٌ ومقام ، لما قام به فى وطننا هذا وفى أفريقيا ، من خدمات للنفوذ البريطانى ، كان يتقاضى عنها - عن خدماته هذه - للاستعمار الإنجليزى - أموالا سخية من أموال وطننا الشقى هذا .

وفى قصة هذه المؤامرة ، كما سنرى ، أكثر من عبرة .

* * *

فى سنة ١٨٧٤ قدم إلى مصر البرنس أوف ويلز ، ولّى عهد إنجلترا ، فى طريقه إلى الهند ، أثنى درّة « كانت » فى تاج الامبراطورية البريطانية يوم ذاك .

وذهب قنصل إنجلترا العام ، قبل مرور الزائر بعشرين يوما ، فقابل الخديوى إسماعيل وأبلغه نبأ القدوم . فكتب إسماعيل « إرادة » سنية

إلى ناظر الخارجية ذى الفقار باشا يبلغه أن « حضرة البرنس ولى عهد صاحبة الحشمة ملكة انجلترا سيحضر إلى جنابنا بعد عشرين يوما » ثم يأمر الخديوى بانتخاب « زورق بحرى بأربعة وعشرين مقدافا من القوارب الملكية المذهبة ، وإعادة تذهيبه وفرشه ، وإعداد العمال وتمرينهم كل يوم على استعمال المقاذيف للذهاب للسفينة والعودة منها ، والتقرب إلى الساحل بكل مهارة » . ويأمر بأن تطلق المدافع إحدى وعشرين قذيفة في جميع الطوابى الواقعة على ساحل الإسكندرية ، من المكس إلى رأس التين . عند دخول ولى عهد صاحبة الحشمة إلى مياه المدينة . ويأمر بإعداد القصور الملكية وتجهيزها « بأطعم » المائدة الفاخرة . والعربات الضخمة المذهبة لركوب سموه إليها . ويذكر أسماء من اختارهم لشرف استقباله « لابسين الحلال الرسمية برفقة القنصل جنرال » الإنجليزى .

وقدم البرنس أوف ويلز فى مواعده . وقابله الخديوى إسماعيل . وجرى بينهما حديث ذكر فيه ولى عهد انجلترا اسم الكولونيل « غوردون » وأثنى عليه ثناء عظيما ، وأشار على إسماعيل باختياره حكمدارا لمديرية خط الاستواء ، فى مكان السير صمويل بيكر باشا . وبادر إسماعيل بتلبية هذه الإشارة . فأصدر أمرا بتعيين الكولونيل غوردون حكمدارا لمديرية خط الاستواء فى ١٩ من فبراير سنة ١٨٧٤ .

وفد غوردون الإنجليزى من إنجلترا ليحكم ، باسم مصر المستقلة
إذاك ، إقليم مصر يا هو مديرية خط الاستواء . وكان جيش مصر الباسل
المكوّن من الفلاحين « أصحاب الجلابيب الزرقاء » ينتقل إذ ذاك من
نصر إلى نصر ، فى قلب أفريقيا ، ويعملو ، مع انتصاراته ، اسم مصر ،
وتسمو مكانتها ، وتنتشر ثقافتها وروحها . وكانت قبائل أفريقيا ، وسلاطينها
ترحب بجيش مصر ، وتبادر بالاعتراف بالسيادة المصرية عليها ، وتطلب
من مصر أن تعينها على النهوض ، وتنظيم إدارتها وتعاليمها^(١) .

وكانت إحدى الوحدات العسكرية المصرية قد وصلت ، فى سنة ١٨٧٢
إلى زنجبار ، عن طريق يوغندا . فأظهر سكان البلاد ترحيبا كبيرا بها .
وقابل سلطان زنجبار القائد المصرى ، مرحبا مستبشرا . ثم طلب إليه أن
يعمل على وضع بلاده تحت الحماية المصرية ، وأن يعقد معه معاهدة بذلك .
يرفعها إلى حكومة إسماعيل لتقرّها . وعقد القائد المصرى معاهدة مع
السلطان ثم أناب عنه ضابطا مصر يا فى زنجبار ، وعاد إلى خط الاستواء ،
ومعه تلك المعاهدة فقدّمها الى قائده غوردون ليرفعها إلى حكومة الخديو .

(١) كان نفوذ مصر ، بل كانت سيادتها الفعلية ، فى ذلك الوقت تمتدّ إلى
أوغندا والسكونفو ، وكانت « كاتجا » إحدى الأقاليم الغنية الهامة فى السكونفو
إقليميا مصرياً . ولكن دسائس الاستعمار وتهاون حكام مصر إذ ذاك واستهتارهم
وغفلتهم أضاع ذلك كله . بعد أن بذلت فيه دماء مصرية طاهرة زكية غالية .

ولسكن غوردون لم يرضه ذلك ، بل أسخطه وأثار حفيظته وحقدته أن ترفع راية مصر على جزيرة هامة في أفريقيا ، يريد هو أن يضمها إلى بلاد الامبراطورية التي كانت الشمس لا تغرب عنها . فأسر في نفسه أمرا يفسد ما أبرمه القائد المصري مع سلطان زنجبار .

بدأ غوردون بالقائد المصري فديرله مكيدة قاتلة تخلص بها منه . أرسله في مهمة لم يرجع منها ، وزعم أنه قتل فيها . ثم أرسل إلى إسماعيل كتاباً زعم فيه أن سلطان زنجبار يقاوم نفوذ مصر ، ويعرقل جهودها . وأنه يتحدى سلطة الخديو فيأسر التجار المصريين الذين يدخلون بلاده . وأنه — أي غوردون — أرسل سرية من الجند لتعرف مصير الأسرى من هؤلاء التجار فخار بهم سلطان زنجبار وحصرهم في رقعة من بلاده . حتى أشرفوا على الهلاك . ثم اقترح غوردون على الخديو أن يرسل إليه هدية يرفعها إلى السلطان لعله يفك أسر الجند والتجار .

وبادر إسماعيل فأرسل إلى غوردون هدية ثمينة ، ومعها كتاب منه اليرفعها إلى سلطان زنجبار ، باسم خديو مصر ، حتى يطلق سراح الأسرى من جنده ورعيته . فلما وصلت الهدية والكتاب إلى غوردون ، حجز الكتاب عنده ، كما حجز المعاهدة من قبل ، وأرسل الهدية مع سائح

إنجليزى اسمه لو كس . وأرفق بالهدية كتاباً منه يحذره فيه من وضع بلاده
تحت حماية مصر .

وقدّم السائح الإنجليزى هدية إسماعيل إلى السلطان ، على أنها من
غوردون ، ومعها كتابه . فعدل السلطان عن مخالفة مصر .

ولكى تتمّ خدعة غوردون لإسماعيل ، اختار غوردون سرية مصرية
وأمرها بالعودة إلى مصر ، ليوهّم إسماعيل أنها هى السرية التى أسرها
سلطان زنجبار ، وأنقذها هو بحيلته وإخلاصه ودهائه .

وبعد أن أفسد غوردون ما فعله القائد المصرى ، أصبح لا يختار
مصرياً لآىّ عمل فى مديرية خط الاستواء . بل يكمل كل عمل فيها
لغير مصرى .

وقد أورد إسماعيل سرّ هناك باشا فى كتابه : « حقائق الأخبار عن
دول البحار » تفاصيل المعاهدة التى عقدها القائد المصرى مع سلطان زنجبار
وسجّل بنودها ، وهى تجعل جزيرة زنجبار تحت الوصاية المصرية . وتجعل
لمصر الإشراف على الجيش والسياسة الخارجية لها . وتكفل إلى مصر أمور
التعليم والإصلاح فى داخل الجزيرة . وتدل بنودها على مقدرة سياسية

فائقة . كان يتصف بها القائد المصري ، الذي لا نعرف اسمه . وإن عرفنا وطنيته ، وإخلاصه ، وتضحيته ، وعبقريته السياسية .

وهناك حقيقة يجب أن نسجلها ونحن نفصل أمر هذه المؤامرة الاستعمارية ، بل هذه المؤامرة المخجلة الدنيئة . هذه الحقيقة هي أن شعب مصر ، ممثلاً في صحافته ، لم يكن غافلاً عن هذه الدسائس والمؤامرات . ولو أن حكامه كانوا غافلين عنها فخدوعين مستهترين .

فقد ذكر سرهنك باشا أن كتاباً نشرته جريدة « الأهرام » وطبع في مطابعها تضمن قصة هذه المؤامرة . ولم يذكر على الكتاب اسم مؤلفه ولا تاريخ طبعه . ومن ثم نستطيع القول بأن هذا الكتاب صدر عن جريدة « الأهرام » . ما دام لم يذكر عليه اسم المؤلف ، فهو في هذه الحالة من تأليف أحد أصحابها ، أو محرريها ، وصدر عن مطابعها .

ويبدو من سياق الحديث الذي فصل به سرهنك باشا ، أو فصلت به « الأهرام » حقيقة الأمر في هذه المؤامرة ، يبدو أن المؤامرة وقعت قبل الاحتلال الإنجليزي بنحو سبع سنوات ، فإذا كانت « الأهرام » نشرتها قبل الاحتلال ، فهي بذلك أدت واجب الصحافة الأمانة في التنبيه لما كان (م ه — بطولات عربية)

يحيط بالوطن من مؤامرات ودسائس ، وإذا كانت نشرتها بعد الاحتلال
فقد أدت هذا الواجب ، وزادت عليه إغضاب سلطات الاحتلال وخديو
مصر الذى استدعاها لحماية ، وفضحت سياسة هذا الاحتلال وهو فى أوج
جبروته و بطشه ، لم نخش من ذلك شيئاً .

في القرن الثامن عشر نالت مصر استقلالها ووحدت البلاد العربية

من الأغلاط التاريخية الشائعة ، بل الراسخة ، أن مصر لم تنل استقلالها إلا في أوائل القرن التاسع عشر ، على يد محمد علي . وأنه أول من استقل بحكم مصر ، في العصر الحديث ، وأول من نزع عنها رداء التبعية للدولة العثمانية ، وحقق لها ، بذلك ، كيانا دولياً مستقلاً عن « دولة الخلافة » . كذا نجد ذلك في كتبنا التي تسجل تاريخنا ، وندرسه في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا . وكان المثلق لمحمد علي وأسرته هو السبب في هذا الخطأ ، بل التزييف ، في تاريخ مصر وأحداثها وكرامتها . وقد آن لهذا الزيف الباطل أن ينقشع ، وأن نعرف تاريخ وطننا الصحيح ونعرف به شبابنا خاصة . فقد حققت مصر استقلالها التام عن دولة الخلافة ، وعن كل تبعية أخرى ، قبل أن يتولى محمد علي حكمها بأكثر من أربعين سنة . وكان ذلك على يد « علي بك الكبير » . ولولا خيانة مملوكه « محمد بك أبو الذهب » لما فقدت مصر استقلالها هذا . ولم تحقق مصر استقلالها هذا فقط ، بل وحدت البلاد العربية ، وجعلت منها « وطناً عربياً » واحداً كبيراً .

وربّ قائل يقول : - إن علي بك لم يكن مصرياً ، كغيره من

المماليك . ولكننا نقول إن المماليك ، في ذلك العهد ، كانوا يعتبرون أنفسهم مصريين ، ليس لهم وطن سوى مصر ، التي تربوا فيها أطفالا ، ونشأوا رجالاً ، ثم ماتوا ودفنوا في ثراها كهولاً أو شيوخاً ، أو شباباً .
وكان المصريون يرون في المماليك هذا الرأي أيضاً . والجبرتي ، مؤرخ القومية المصرية ، يسمي المماليك على الدوام « الأمراء المصرية » ، ويрам مصريين .

فنجن ، عند ذلك ، نستطيع أن نقول إن علي بك الكبير ، كان أقرب إلى مصر وأهلها من محمد علي ، الذي نعرف وطنه ، وكيف قدم مصر ، واستقر بها ، ثم استولى ، بالخديعة والمكر والغيلة ، على الحكم فيها .
على أن علي بك الكبير ، كما نرى بعد قليل ، كان ، إلى حد بعيد ، خيراً من محمد علي في سيرته الخاصة ، وفي شئون الحكم ، ورعاية أمور الناس ، والحرص على خيرهم .

* * *

كان الغلام علي القازدُ غلى - نسبة إلى زعيم سيده مصطفى كَتخدا القازدغلى - من مماليك إبراهيم كَتخدا . فلما بلغ طور الشباب بدت عليه بوار الشجاعة ، والطموح ، وقوة الشخصية . فلما مات سيده تولى الإمارة بعده سنة ١١٦٨ (١٧٥٤ م) . ثم تولى « شيخ البلد » أي حاكم مصر

الحقيقي في سنة ١١٧٧ (١٧٦٣ م) ولم يصل على بك إلى مشيخة البلد ،
إلا بعد حروب ومنازعات طويلة مع خصومه ومنافسيه . دامت نحو
عشر سنوات .

ونجد في تاريخ مصر لهذه الفترة أسماء : على بلوقبطان ، أى : « مبيد
الصوص » وعلى القازدُغلى وعلى بك الكبير . وهى كلها لشخص واحد
هو هذا الذى نتحدث عنه^(١) وفى فترة من شبابه كان يسمى : « جنّ على »
عندما حارب مع زعيمه إبراهيم بك جماعة من الأعراب فى الحجاز وهزم
المماليك ولم يصمد للحرب منهم سوى على بك . واستطاع أن يفرق العرب
غسمى « بالجن » .

وكان جند الإنكشارية من أكبر القوى التى تعتمد عليها الدولة العثمانية
فى السيطرة على مصر ، فكسر شوكتهم ، وأكثر من شراء المماليك ، حتى
بلغ عدد ممالكه ستة آلاف ، ثم وجه همه إلى تحصين الحدود البحرية .
فجدد قلاع الإسكندرية ودمياط وحصنها ، وعزز حاميتها .

وكان على بك ، فى بدء حكمه ، يذكر ملوك مصر العظام ، من أمثال

(١) تجد ترجمة وافية لعلى بك فى الجزء الثانى من كتابنا : [دراسات فى
تاريخ الجبرتي ، مصر فى القرن الثامن عشر] . ص ٦٨ — ٧٥ . الطبعة الثانية
« مطبعة الرسالة » .

قلاوون ، وبيبرس ، ويطالع سيرهم . ويقول إنهم من بنى جنسه . وأن
العثمانيين لم يفتحوا مصر إلا بالقهر والغلبة ، التي مكنتهم منها : الخيانة .
ولولا هذه الخيانة لما استطاع سليم الأول أن يتغلب على مقاومة مصر ،
وأن يدخلها فاتحاً مدمراً .

« بعد أن أصبح على بك حاكماً على مصر ، قرّر في نفسه أن يستقل
بها عن تركيا . وأخذ يعمل على ذلك سراً ، ويضع الخطط التي تمكنه
من غايته . وفي ١١٨٢ [١٧٦٨ م] كانت الحرب قائمة بين تركيا وروسيا
فطلبت تركيا من مصر أن تمدّها بجيش مكوّن من اثني عشر ألف
جندي ، فلما شرع على بك يجمع هذا الجيش توجّست الدولة منه ومن
جيشه . وظن رجال السلطان في إسطنبول أنه بعد أن يتمّ له تأليف هذا
الجيش ، سيضعه في خدمة روسيا لتحارب به تركيا . على أن تُعينه روسيا
على الاستقلال بمصر . وأرسلت الدولة ، بناء على هذه الشكوك والهواجس ،
أمراً إلى واليها في القاهرة ليقتل على بك . ولكن هذا كان له رجال
يقظون يتجسّسون له على الدولة ، ويوافونه بأنباء الحاكّمين في إسطنبول
وأسرارهم . فأبلغوه نبأ الرسالة التي أرسلت إلى الوالي في القاهرة بقتله .
فلما أوشك حامل الرسالة أن يصل القاهرة ، كان رجال على بك يتربّصون
به ، فلما رأوه قتلوه . وأسرعوا بالرسالة إلى سيدهم على بك . وجمع على بك

مماليسكه ورجاله ، فأعلن إليهم أن أمراً جاء من إسطنبول يطلب إلى الوالى فى القاهرة أن يقتل جميع المماليك ، وأنه استطاع أن يقتنص هذا الأمر وحامله . وكان على بك خطيباً مؤثراً خلافاً . فتحدث إلى المماليك عن ماضيهم ، ومجدهم ، وانتصاراتهم ، وحروبهم . وما كان لمصر من عزة وقوة وثروة . وأن تركيا تحقد عليهم وعلى مصر ، وتريد أن تفتك بهم جميعاً . وثارَت حميَّة المماليك واستشاط غضبهم . فأعلنوا خلع الوالى العثمانى ، محمد باشا الأورفلى ، وإخراجه من مصر ^(١) وهذا ما كان يدبره على بك ويسعى إليه .

وبعد ذلك أعلن على بك مصر دولة مستقلة لا سلطان لأحد عليها ولا تبعيَّة ولا ولاية . وأنه ليس للدولة العثمانية وخليفتها أى حق قبله ولا قبل مصر .

وبذلك أزال كل أثر للفتح العثمانى الذى كان من نتيجته دخول السلطان سليم مصر ، وتبعيَّتها لتركيا : « ولاية » من الولايات التى تخضع لاسطنبول ويحكمها سلطان تركيا العثمانى . وكان إعلان هذا الاستقلال

(١) ص : ٦٩ — ٧٠ من : [دراسات فى تاريخ الجبرتى ؛ مصر فى القرن الثامن عشر] ، الطبعة الثانية .

في سنة ١١٨٣ [١٧٦٩م]، وأخذ على بك يعزّز استقلال مصر هذا ، فمنع قدوم
الولاة الأتراك من اسطنبول إلى القاهرة ، فلم يجىء منهم أحد مدى أربع سنوات ،
كان فيها حكم مصر كلها مصدره القاهرة وحدها . ومنع إرسال « الجزية »
التي كانت تدفع من مال مصر إلى تركيا منذ قرّرها السلطان سليم .
وضرب على بك نقوداً جديدة نقش عليها اسمه ، وألقبه سلطاناً على مصر ،
وتاريخ استقلالها ، بالتاريخ الهجري ، سنة « ١١٨٣ » ، ولا يزال بعضها باقياً
إلى اليوم ، وعقد معاهدة تجارية حرّة بين مصر وإنجلترا ، كما عقد معاهدة سياسية
مع البندقية بواسطة تاجر من رعاياها كان صديقاً له هو : كارلوروسيتي^(١) كما
عقد معاهدة دفاعية هجومية مع روسيا . ثم نظر بعد ذلك إلى مناصب الدولة ،
فأخرج منها من كان ميلهم إلى تركيا ليأمن خيانتهم وسوء تدبيرهم . وأمر
المماليك الذين لا يطمئن إلى صدق ولائهم ألا يشتري منهم أحد أكثر
من مملوك ، أو مملوكين . وكان عنده منهم ستة آلاف كما رأينا .

وكانت معاهدة على بك مع روسيا الغرض منها تدعيم استقلال مصر
وتقوية جيشها . نصّت المعاهدة على أن تساعد مصر روسيا في حربها ضد

(١) بقي روسيتي هذا في مصر حتى قدوم نابليون إليها . وكان قنصلاً لألمانيا
في القاهرة ، وكتب روسيتي تاريخاً لعلى بك يوجد منه الآن مخطوط في مكتبة باريس
الأهلية .

تركيا . غرمة مصر التي احتلتها واستولت عليها ثلاثة قرون . وأن يد على بك الأسطول الروسى بالجند والمؤن . فى مقابل أن ترسل إليه روسيا ضباطاً لتنظيم الجيش المصرى وتدريبه على نظم الحرب الحديثة وأساليبها ، ومهندسين لأعمال الحصار ، ونصت المعاهدة أيضاً على تحالف دفاعى هجومى بين مصر وروسيا . وبعد إتمام هذه المعاهدة أرسل على بك « ذو الفقار بك » سفيراً ومبعوثاً خاصاً منه إلى قيصرية روسيا الإمبراطورة كاترين ، وأرسلت إليه رسائل الصداقة من روسيا ، مع ضابطين روسيين ، وقدمت إليه ثلاثه مدافع حصار هدية .

وأقدم على بك على خطوة أخرى فى سبيل تدعيم استقلال مصر ورقايتها عن طريق التوسع فى التجارة الخارجية مع الشرق الأقصى . فأنشأ طريقاً مباشراً للتجارة بين الهند وميناء السويس . وتبادل الرسائل فى هذا الشأن مع حاكم ولاية البنغال الإنجليزى . وكان من نتيجة ذلك تأليف شركة للتبادل التجارى مع مصر . وأرسل حاكم البنغال إلى على بك يشكره على هذا التوسع التجارى واهتمامه بهذا التبادل ، وعقد معاهدة تجارية بين مصر والبنغال .

وبذلك حوّل على بك الصادرات والمتاجر الشرقية من طريقها الطويل حول القارة الأفريقية ورأس الرجاء الصالح إلى طريق البحر الأحمر ، كما

كانت قديماً ، ولكن تركيا قضت على هذا الطريق بعد ذلك ، عندما مات حاكمها المستقل على بك .

قومية عربية :

أصبحت مصر بذلك وطناً مستقلاً ذا سيادة . يعقد سلطانه المعاهدات ويتبادل الرسائل مع القياصرة والحكام .

عند ذلك نزع على بك إلى أن يجعل من البلاد العربية كلها وحدة متكاملة . وأن يقيم من أهلها « قومية » عربية متماسكة . ولم يكن أمامه سوى طريق واحد ، هو أن يحارب جيوش الدولة العثمانية في هذه البلاد كما حاربها في مصر ، وأن يقضى على نفوذها في هذه المنطقة كلها ، كما قضى عليه في مصر .

كان على بك أثناء الخسومات العنيفة التي قامت بينه وبين خصومه من المماليك أبعد من القاهرة إلى الحجاز ، وأقام فيها فترة ما . فلم يقض هذه الفترة من النفي عبثاً ، بل جاس فيها خلال البلاد ، وتعرف شئونها وأحوالها . وزار ، زيارة الفاحص المتأمل الخبير ، موانئها على البحر الأحمر ، وخاصة ميناء جدة . فلما تم له استقلال مصر وتدعيم مكانتها ، كوّن

جيشاً لتخليص بلاد الحجاز من النفوذ التركي . واختار مملوكه وتابعه « محمد بك أبو الذهب » قائداً لهذا الجيش . واستطاع جيش مصر بقيادة « أبو الذهب » التغلب على جيش الاحتلال التركي ، وعزل الحاكم العثماني الذي كان يحكم الحجاز باسم السلطان العثماني . ودخل أبو الذهب مكة والمدينة ، فتمرتزت بذلك مكانة مصر وقوى نفوذها ، وارتفع اسم سلطانها على بك ، ونوديَ به في الحرمين الشريفين : « سلطان مصر و خاقان البحرين والبرّين » . واختار أبو الذهب حاكماً مصرياً على الحجاز ، هو حسن بك ، وجعل إقامته في جده . لذلك عرف باسم حسن بك الجداوى . وخلع الشريف أحمد ، الذي حارب جيش مصر باسم الدولة العثمانية ، ونصب ابن عمه الشريف عبد الله بدلاً منه . وبذلك أشرك أبناء البلاد في حكمها وتدير شؤونها .

وكان الجيش الذي جرّده على بك لتحرير بلاد العرب مقسماً إلى قسمين ، أحدهما برّي ، بقيادة حسن الجداوى ، وقد استولى على الحجاز من الداخل . وثانيهما بحري يشمل أسطولاً كبيراً وجيشاً ، وقد استولى على السواحل والموانئ . وانتصر كلا الجيشين . وتمّ التقاءهما وتحرير بلاد الحجاز كلها من النفوذ التركي . ثم سار هذا الجيش المصري بعد ذلك إلى اليمن فحرّرها ، وقضى على كل أثر فيها للسلطة العثمانية . وعاد حسن

الجداوى بعد هذه الفتوحات إلى القاهرة في سنة ١٧٧٠ م .

وهنا يجب أن نقول كلمة عن تكوين هذا الجيش الذى اعتمد عليه على بك الكبير فى تحرير الحجاز واليمن ، تم تحرير سوريا وفلسطين فيما بعد ، وإدماجها كلها فى القومية العربية .

لم يكن هذا الجيش من المماليك وحدهم ، كما كان الحال قبل حكم على بك ، بل كان يضم عددا كبيرا من المصريين .

ذكر الرحالة « فولانى » ^(١) - وقد شهد جيوش مصر فى سيرها إلى سوريا - أنها كانت مكونة من نحو أربعين ألفا ، منهم خمسة آلاف فارس . وصف ثيابهم وبهجة ملابسهم ورواء مظهرهم ، وكان مع هذا الجيش عشرة آلاف من المتطوعين المصريين . كما كان فى هذا الجيش كثيرون من المغاربة ، والسوريين ، والدروز ، والسودانيين ، وأهل اليمن ، وغيرهم ، فتكوين الجيش نفسه كان مظهرا من مظاهر الوحدة العربية ، بل كان حقيقة من حقائقها . بل إن بعض الجند الإنكشارية ، وهم جند الدولة العثمانية وعدّتها فى مصر ، آمن بزعامة على بك ، وانضم لجيوش مصر ، وحارب معها لتوحيد الوطن العربى وتخليصه من السيادة التركية . وكان هؤلاء

(١) فولانى : كاتب فرنسى رحالة ، زار مصر وسوريا وكتب رحلة عنهما فى

سنوات ١٧٨٣ ، ١٧٨٤ ، ١٧٨٥ .

الذين انضموا للجيش على بك من الانكشارية ، يعملون تحت قيادة المماليك « الأمراء المصرية » كما يسميهم الجبرتي .

وبهذا كان على بك « أول من جند المصريين في خدمة الجيش من زمن طويل سابق لهذا العهد - إذ كانت الخدمة العسكرية موكولة للماليك وحدهم - فوجد على بك أن رغبته بالاستقلال بمصر لا تقيسر إلا بإشراك المصريين أنفسهم في الدفاع عن بلادهم »^(١)

« ولما كثرت حروبه أدمج كثيراً من الأهليين في صلب جيشه ، بل حاول أن ينشئ جيشاً مصرياً بحسباً يعهد إلى بعض الضباط الروس بتدريبه على النظم الأوروبية وإنشائه على الطراز الحديث ، بدلا من الطراز المملوكي القديم »^(٢) .

بعد أن اطمأن على بك إلى استقرار الأمن في الحجاز واليمن ، انتقل إلى تخليص سوريا من النير العثماني . فألف جيشا من ثلاثين ألف جندي ، واختار لقيادته أيضا مملوكه أبو الذهب . وسار هذا الجيش من نصر إلى نصر حتى دخل دمشق وفتح الطريق إلى جبال طوروس ، واندحر الجيش العثماني فتحررت منه سوريا كلها ، وأصبحت جزءا من الوطن العربي الكبير ، الذي

(١) ص ٥٩ من كتاب : [ثورة على بك الكبير] للاستاذ أنور زقلمة ، « البيان العربي ١٩٥٢ » .

(٢) ص ٧٤ من المصدر السابق .

خلع نير الحكم، بل الظلم، العثماني. ووحّدت مصر بين أجزائه كلها. ما عدا فلسطين. وهنا بدأ ظل الخيانة، وكان التواطؤ بين الدولة العثمانية وبين محمد أبو الذهب، مملوك على بك وتابعه، على أن يخرج المملوك القائد عن طاعة سلطانه وسيده على بك. على أن تترك الدولة لأبي الذهب حكم سوريا ومصر، وتمنحه رتبة الباشوية، التي لم يفلها على بك ولا أحد من المماليك. وبعض المؤرخين يقول إن الدولة أعطت أبو الذهب ذهباً كثيراً، رشوة له على هذه الخيانة. وتم الاتفاق على أن يعلن أبو الذهب رجوع مصر وسوريا إلى التبعية العثمانية. واستخدم الدين أيضاً وسيلة لقبول هذه الخيانة. فأعلن العثمانيون أن على بك يحارب « خليفة المسلمين » وأنه ينتصر عليه بالأجانب الغير المسلمين.

بعد أن تم التواطؤ على هذه الخيانة. بدأت مراحل تنفيذها بعودة أبي الذهب مع جيشه إلى مصر، أي الإنسحاب من سوريا. بعد تطهيرها من العثمانيين، وتركها لهم صيداً في اليد. وإشاعة الكراهية والحسد في نفوس المماليك ورجال الجيش ضد على بك والزعم بأن الجيش قاتل وحارب وانتصر في سوريا وغيرها، بينما على بك في القاهرة يجني ثمار هذا الانتصار وينال بها المجد والعزة والملك. وعاد أبو الذهب وجيشه إلى القاهرة، وكانت خالية أو شبه خالية من الجند. فاستولى أبو الذهب عليها. وخرج منها على بك إلى صديقه الشيخ ظاهر عمر، حاكم عكا، وبمعونة الشيخ

ظاهر ومعونة قطع من الأسطول الروسى كانت تقف فى مينائها ، استطاع على بك أن يتغلب على فلول الجيش العثمانى . وأن يعيد الوحدة بين مصر وسوريا . بل استولى على الجزء الأكبر من فلسطين أيضا . وهزم العثمانيين فى معركة فاصلة بالقرب من قرية « صعير » فى يوايو من سنة ١٧٧٣ .

وبدأت خيوط الخيانة تمتد . فاتفق أبو الذهب مع جماعة من الخونة على أن يرسلوا لعلى بك خطابا يشكون فيه من ظلمه — أى ظلم أبى الذهب — ويطلبون من على بك أن يبادر بالرجوع إلى مصر لينقذهم من ظلمه . وكان على بك يتهميا لتصفية حسابه مع أبى الذهب ، وتأديبه على خيائته وإفساده ، فبادر بالرجوع إلى مصر ، معتقدا أنه سيفجؤ أبا الذهب فى القاهرة على غرّة ، ويفتحها عليه ، وسيكون الشاكون المدّسون عوناً له على أبى الذهب . حتى يخلصوا من ظلمه ، كما زعموا . ولكن أبا الذهب كان على علم بقدوم على بك . فالتقى مع جيشه عند الصالحية . ومع أن جيش على بك كان أقل عدداً من جيش أبى الذهب ، فقد استطاع على بك أن يتغلب أول الأمر ، ولكن أبا الذهب استطاع أن يتصل بخائنين آخرين من جيش على بك وأن يفتنهم عن أمانة سيدهم وزعيمهم . وعادت الحرب مرة أخرى ، فهزم على بك وجرح وجهه ، ووقع فى أسر مملوكه وتابعه الخائن أبى الذهب . بعد أن بلغ غاية الشجاعة فى

الحرب ، وبعد أن أبلى في الدفاع عن نفسه أكرم بلاء ، وقتل حوله خاصة حرسه كلهم . ووقف أبو الذهب يملق سيده على بك وهو جريح ، ويصف الجبرتي ، صديق على بك وأبا الذهب ، هذا اللقاء وصفاً شاعرياً ، يقول إن أبا الذهب قبّل يد على بك ، وأعانه على السير ، ورافقه إلى خيمته فأجلسه في صدرها ، في موضع جلوسه هو ، ثم نقله إلى القاهرة مريضاً ، فأحضر له أبو الذهب عدداً من الأطباء لتمرّضه . ولكن على بك مات بعد وصوله القاهرة بسبعة أيام . وتحدث الناس في القاهرة عن السم الذي دسّ للبطل الشهيد على بك ، وسجل الجبرتي حديثهم هذا . وقد رأينا من صفات الخيانة والغدر عند أبي الذهب ما يجعل هذا الحديث محتملاً ، أو ممكناً ، أو راجحاً . وكانت وفاة على بك في اليوم الخامس عشر من صفر سنة ١١٧٨ [٨ مايو ١٧٧٣] م ودفن في قرافة الإمام الشافعي إلى جوار أستاذه إبراهيم كتيخدا . ولم يفد الخائن أبو الذهب من غدره شيئاً . فقد خرج بعد ذلك لحرب الظاهر عمر حليف على بك ، في عكا . ولكنه لم ينل ما يريد ، فقد فاجأه الموت بعد قليل . وكانت الدولة العثمانية بدأت تدفع له ثمن خيائته ، فأُنعمت عليه برتبة « الباشوية » ، ولكنه مات قبل أن تصل إليه برائتها . ودفن في مسجده أمام الجامع الأزهر . بعد أن نقل من سوريا ، حيث مات ، إلى القاهرة . فتغيّرت رائحته . وكانت تسير أمام نعشه مجامر العود والعنبر لستر الرائحة .

وهكذا نجد أن مصر قد نالت استقلالها كاملاً غير منقوص ، وتحررت من التبعية العثمانية ومن الاحتلال التركي ، وقامت بعد ذلك بتحرير البلاد العربية من هذه التبعية وهذا الاحتلال . وقامت ، على يد مصر ، وحدة عربية كاملة شملت بلاد الحجاز ، وسوريا ، واليمن ، وفلسطين . وكان هذا كله على يد جيش مصري شجاع ، يقوده بطل مصرى الشعور والعاطفة والإحساس . هو على بك الكبير . ولولا الخيانة التى لجأت إليها الدولة العثمانية وتابعها أبو الذهب لبقيت هذه الوحدة ما شاء الله لها أن تبقى . ولتغير وجه التاريخ فى هذه المنطقة من الوطن العربى ، وأغلب الظن أنه كان يتغير فى مواطن أخرى من العالم .

وقد لقيت هذه الوحدة بين البلاد العربية يوم ذاك صدى عميقاً من البهجة والفرح . فقد كان هذا الانتصار على الجيوش العثمانية ثأراً لمصر ، استردت به كرامتها التى أهدرتها الخيانة أيضاً فى « مرج دابق » ، ومعارك القاهرة وغيرها مع السلطان سليم ، وثأراً لدم سلطان مصر الشهيد « طومان باى » الذى سَفَكَه سليم عدواناً وظلماً^(١) . فعندما وصلت القاهرة أنباء الانتصارات التى نالتها جيوش مصر على الجيش العثمانى

(١) أنظر فصل : [السلطان الشهيد طومان باى] فى هذا الكتاب .

(م ٦ — بطولات عربية)

فى سوريا ، أقام أهلها الزينات الرائعة ، والأفراح البهيجة ، ولبست أحياءها كلها أبهى حلة من الأنوار والأعلام . ودامت هذه الأفراح والزينات ثلاثة أيام بلياليها ، وأقيمت الولائم فى كل مكان . وأطلقت المدافع ، وسارت المراكب فى النيل تزئنها الأنوار ليلاً ، وتطلق منها الصواريخ . واستولى على الناس جميعاً الفرح الشامل والسرور البالغ .

* * *

وكذلك شهد المصريون فى حكم على بك من الأمن والرخاء ما لم يسعدوا به من قبل . كان المسافر ، كما قال الجبرتي ، يسير ، بمفرده ، ليلاً « راكباً أو ماشياً . ومعه يحمل الدراهم والدنانير ، إلى أى جهة . ويبيت فى الغيط أو البرية » وهو آمن لا يناله سوء ، ولا يعتدى عليه أحد .

وحارب على بك ، بقسوة بالغة ، المفسدين والمرتشين . ولو كانوا من العلماء . وكان بعضهم يتدخل لدى القضاة ، ويقدم لهم ، عن أحد طرفي الخصومة ، رشوة . فعاقبهم ، وعاقب القضاة الذين يقبلون ذلك ، واشتد فى عقابهم بالضرب والنفي ، والقتل أيضاً . وكذلك فعل مع اللصوص وقطاع الطرق . فكان ما رأينا من الأمن والطمأنينة .

وكذلك وصف الجبرتي ، وقد شهد هذه الفترة ، ما كان في مصر من الرخاء فقال إن الحياة كانت رخية ، والمكاسب وافرة ، والخير كثيراً .

وشهد الرحالة الفرنسي سافاري بأن مصر سعدت في عهد علي بك بنزاهة في الإدارة والحكم كانت تتطلع لها منذ أمد طويل .

وكان علي الكبير يتمتع بمكانة شعبية كبيرة ، ومحبة يشترك فيها الناس جميعاً .

كان علماء الأزهر — زعماء الشعب وسفراءه يوم ذاك — يؤيدونه ويرجعون كفته على الدوام في خصوماته الكثيرة العنيفة مع المماليك ، في أول عهده . كان يترك القاهرة في بعض الأحيان ، مغاضباً أو مقهوراً ، فكان العلماء والناس يطلبونه حتى يعود . وقد اشتد الشيخ محمد الحفناوي ، أو الحفني ، وكان أبرز علماء عصره وأكثرهم شجاعة ونزاهة وزهداً^(١) اشتد الشيخ محمد الحفني على خصوم علي بك من المماليك وألقى عليهم حديثاً شديداً عنيفاً ليتركوا مخاصمته التي كانت سبباً في « خراب الأقاليم والبلاد » كما قال الشيخ الحفني ، فلم يغضبوا من حديثه وشده .

(١) ترجمة الشيخ الحفني ص : ١٥٧ — ١٦٢ من كتابنا (دراسات في تاريخ الجبرتي ، مصر في القرن الثامن عشر) الجزء — ٢ — من الطبعة الثانية .

وكان على بك يمتاز بالهيبة العظيمة والذكاء الفائق ، روى الجبرتي
أن بعض من دخل عليه مات من الرعب . واسكنه كان ، إلى ذلك ، رقيقا ،
مؤنسا . يلاطف جلساءه . ويقرأ ما يرفع إليه من الشكاوى بنفسه .
ولا يوقع على أمر إلا بعد أن يتدبره ، مهما كان صغيراً . وكان يقرأ
التاريخ ، وسير ملوك مصر . ولا يجالس إلا أهل العلم والوقار ، ولا يكثر
من الكلام مع جلسائه ، ولا يضاحكهم ، مهما علت مكانتهم .

وأما حكمه ، فقد امتاز بإبطال الرشوة . حيث كان يتتبع بنفسه
المرتشين ، فينزل بهم أشد العقاب ، ولو كانوا من أهل النفوذ والسطوة .
وأولى عناية كبيرة بأمن البلاد حتى كان المسافر يسير منفردا ، من بلد
إلى بلد ، ليلا ، وهو يحمل المال الكثير . ثم لا يعترضه سارق ولا مغتصب .
كما رأينا من قبل .

ومن مماليكه مراد بك وإبراهيم بك . ولهما في تاريخ مصر بعد ذلك
دور هام ، وأحمد باشا الجزائر ، الذي ردّ نابليون عن أسوار عكا .

محاولة أخرى لاستقلال مصر

من عظماء الرجال الذين ترجم لهم الجبرتي من المصريين في تاريخه الحافل : « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » : المعلم يعقوب ، زعيم القبط ورئيسهم في عصره .

وقد ترجم له الجبرتي ولكنه لم يوفه حقه . ونحن نأخذ من سيرته عن الجبرتي وعن مصادر أخرى مختلفة ، في هذه السطور . ثم نتحدث عن محاولة له لنيل استقلال مصر .

ولد يعقوب في ملوى حوالى سنة ١١٥٨ (١٧٤٥ م) ثم دخل في خدمة كبير الانكشارية سليمان أغا أيام حكم على بك الكبير . وكان يتولى إدارة الشؤون المالية لسليمان أغا هذا ، فجمع من عمله وسعيه ثروة كبيرة . فلما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ، أعانها يعقوب وانحاز إليها وقدم لها مساعدات ذات قيمة .

فقد التحق بجيش الجنرال ديزيه قائد الفرنسيين في الصعيد . وشارك هذا القائد في مطاردة مراد بك ، وكان يدبر لهذه الحملة ما تحتاجه من مؤن ، ويحارب بسيفه أيضاً معها . فلما عادت الحملة إلى القاهرة ، وُكِّل إليه الجنرال

كبير تنظيم مالية البلاد ، واستخلاص الضرائب والمغارم التي يفرضها الفرنسيون على مصر ، وعلى الثائرين من أهلها خاصة . ويقول الجبرتي إن الفرنسيين أطلقوا له في ذلك حرية واسعة ، وجعلوا له نفوذ كبيراً بعد ثورة القاهرة الأولى عليهم ، فكان يفعل بأهلها ما يشاء^(١) . حتى جمع للفرنسيين ما فرضوا من مغارم ثقيلة .

وقد هدم يعقوب الأماكن المجاورة لمسكنه في حارة النصارى ، وخلف الجامع الأحمر . وبنى له قلعة سورّها بسور عظيم ، ووضع فيها الأبراج وأقام فيها المدافع . وكذلك فعل بما يحيط بحارة النصارى كلها . وأقام على ذلك كله حراساً مسلحين ، على النظام الفرنسى .

ولما جاءت الجيوش العثمانية والإنجليزية لإخراج الفرنسيين من مصر ، كان يعقوب يعمل قائداً مساعداً للجنرال بليار . يدافع معه عن القاهرة حتى لا تدخلها هذه الجيوش .

وقد كافأه الفرنسيون ، فأنعموا عليه بسيف ، وجعلوه مستشاراً لهم ومديراً للشئون المالية والضرائب ، ثم أنعموا عليه بلقب جنرال .

(١) هذا ما يقرره الجبرتي . وسنرى بعد قليل ما يقوله المعلم يعقوب من أنه كان يستخدم مكائنه ونفوذه عند الفرنسيين في التخفيف عن المصريين .

ولما خرجت الحملة الفرنسية من مصر ، كان من شروط تسليمها أن يُسمح لمن يشاء من الذين عملوا معها ، ولو لم يكن فرنسيا ، أن يصحبها ، فخرج يعقوب وركب البارجة الانجليزية بللاس ، مع الجنرال بليار . وكانت آخر البوارج التي غادرت ميناء الإسكندرية . وبعد يومين من سفرها أصيب الجنرال يعقوب بمرض ، ثم مات في صباح يوم ١٦ أغسطس سنة ١٨٠١ ولم تلق جثته في البحر ، بل حملت إلى حيث دفن في مرسيليا بمقبرة القديس بطرس . بعد أن شيع جثمانه في احتفال عسكري مهيب .

وقد نشرت الجمعية الجغرافية المصرية في القاهرة سنة ١٩٢٤ وثائق^(١) محفوظة في وزارة الخارجية البريطانية تتضمن مشروعا كان المعلم يعقوب قد تحدث به إلى رجال البارجة ، وهي في طريقها من الإسكندرية إلى مرسيليا . ويتضمن المشروع بنوداً وعروضا لاستقلال مصر بضمانة الدول الأوروبية عامة ، وانجلترا خاصة . ويبيع تكوين جيش مصرى خالص ، لرد العدوان عن هذا الاستقلال .

وقد اختلف المؤرخون في الحكم على المعلم الجنرال يعقوب حنفا ، بعضهم يرى أنه كان زعيما وطنيا آثرا أن يعين الفرنسيين حتى يخلص وطنه

(١) نشرت نصوص هذه الوثائق أيضاً في مجلة مصر الحديثة المصورة ، عدد يونيو سنة ١٩٢٨ . نقلا عن وثيقة وزارة الخارجية البريطانية برقم : ٧٨ مجلد : ٣٨ .

من حكم الأتراك والمماليك . فلما فشل في ذلك بالحرب ، حاوله بالسياسة .
وتحدث في ذلك إلى رجال البارجة الانجليزية ، تمهيداً للحديث فيه مع كبار
الساسة منهم .

وبعضهم يقول : إنه أراد أن يكسب لقومه مغائم وجاهاً ،^(١) .
وأياً ما كان القول في الجنرال يعقوب ، أو المعلم يعقوب معنا ،
فنحن نجد في هذا المشروع الذي كان يسعى إليه لتحقيق استقلال مصر
شيئاً من الضوء على عواطفه وأهدافه ومراميه ، ومن ثم على شخصيته
وسيرته .

مشروع المعلم يعقوب

ركب المعلم يعقوب البارجة الإنجليزية : « بلالاس » وهي البارجة التي
رحل عليها القائد الفرنسي الجنرال بليار عند مغادرته مياه الإسكندرية
مع جيوش نابليون المنسحبة من مصر . وغادرت البارجة الميناء يوم ١٠ من
أغسطس سنة ١٨٠١ ، وقبل أن تغلق البارجة تلقى الجنرال بليار كتاباً

(١) بتلخيص عن كتابنا (دراسات في تاريخ الجورق) ، مصر في القرن
الثامن عشر) ص : ١٥٩ — ١٦١ من الجزء الأول ، الطبعة الثانية . « الرسالة » .

من القائد التركي قبطان باشا حسن يستميل فيه المعلم يعقوب البقاء في مصر ، ويرجو من القائد الفرنسي أن يبذل وساطته عنده ليعدل عن عزمه على مغادرة مصر ، ولسكن هذه الوساطة لم تفجح .

وفي اليومين التاليين لرحيل البارجة أفضى المعلم يعقوب بتفاصيل مشروعه لقائد البارجة الضابط : « جوزيف آدموندس » وكان القائد يسجل هذه التفاصيل ويرسلها إلى السكونت سان فنسان ، اللورد الأول في إنجلترا ووكيل البحرية البريطانية . ومن هنا ندرك المسكانة التي كان يتمتع بها هذا الزعيم المصري ، والاهتمام الذي لقيه شخصه ولقيه مشروعه لاستقلال مصر .

يقول يعقوب في حديثه مع قائد البارجة إن حكم الأتراك لمصر كان أسوأ حكم يمكن أن يتصوره إنسان . ومع هذا فقد كان يستطيع أن يبقى في وطنه ، وأن يعيش فيه سعيداً هائلاً منعماً بثروته الكبيرة . ولسكنه يريد أن يحقق لوطنه خيراً بالسعي إلى استقلاله . وهو يشعر بأن له منزلة ملحوظة عند الفرنسيين — ولو أنه لا يبرّشهم من خداعه — ، وأنه استفاد من هذه المنزلة في تخفيف كثير من الآلام التي أوقعها الفرنسيون على أبناء وطنه في فترة احتلالهم مصر . لذلك يعتقد أن مساعده هذا الاستقلال سيلقى انتباهاً وتشجيعاً من نابليون إذا عرض عليه والتقى هو به شخصياً .

كما سياتى حديثه ومشروعه مثل هذا الانتباه والتشجيع من الدول الأوربية الأخرى ، ومنها إنجلترا .

ومن ذلك نعرف أن المعلم يعقوب كان يريد أن يجعل من قضية مصر واستقلالها « مسألة دولية » . وهو الوضع الذى أخذته المسألة بعد ذلك فعلاً بعد قرن وربع قرن ، بعد أن خرج منها الأتراك واحتلها الانجليز . أى بعد انتهاء الحرب العظمى الأولى .

ولكى يجعل المعلم يعقوب لقضية مصر هذه المنزلة الدولية ويبرّر استقلالها أيضاً ، قال إن مصر بوصفها الجغرافى ومكانها وسط العالم المتحضر المتخاضم ، ووقوعها على بحرين من أهم بحار العالم ، وقارتين من أكبر قاراته ، مصر بوصفها هذا ستكون ، وهى مستقلة ، ميزاناً للقوى فى هذه المنطقة وعاملاً من عوامل « الحياد » وتلطيف الخصومات الحادة التى كانت قائمة متمكّنة يوم ذاك بين إنجلترا وفرنسا . كما تكون منبراً أميناً لتجارة العالم مع آسيا . وتكون موانئها وتجاريتها ومحاصيل أرضها الحصبة من أكبر عوامل الرخاء لدول أوربا .

فقد كان المعلم يعقوب — إذن — يفكر — وهو يمرض مشروعه — فى موقف « الحياد » الذى تتخذه مصر المستقلة . ولو كان اصطلاح « الحياد

الإيجابى «الذى تنادى به الجمهورية العربية المتحدة الآن معروفا يوم ذاك» ،
فأكبر الظن أن المعلم يعقوب كان ينادى به ويلتزمه لوطنه .

بعد أن انتهى يعقوب من إيراد المبررات لاستقلال مصر ، وانتهى
من ذكر فوائد هذا الاستقلال للدول الأوربية ولأمن العالم كله ورخاءه ،
انتقل إلى نوع الحكم الذى تحكم مصر نفسها على أساسه : كيف يحكم
المصريون أنفسهم . . . ؟ وكيف يدافعون عن بلادهم ؟ .

يقول يعقوب فى جواب السؤال الأول إن حكم الأتراك والمماليك
لمصر جعل أهلها يقبلون ، بل يرحبون ، بحكومة تخرجهم من ظلم
الأتراك وجبروتهم ، ويقبلون ، بل يرحبون ، بحاكم مصرى منفرد ،
يكون له عليهم السلطان المطلق ، حتى يتحقق لهم على يديه الأمن والرخاء ،
ويصلح أحوالهم المضطربة ، وينمى زراعة أرضهم الخصبة التى يضعف
الاستفادة منها الظلم وعدم الاستقرار . وما دامت مصر نالت استقلالها باتفاق
الدول الأوربية ، فستضمن هذه الدول حيادها ، وتهتبه لحماكتها هذا
جميع الفرص للنهوض ببلادها فى مقابل المزايا التى تنالها الدول الأوربية ،
والتي ذكرها من قبل .

ويقول المعلم يعقوب فى جواب السؤال الثانى إن مصر فى هذه الحالة .

أن يقع عليها عدوان إلا من جانب تركيا ، التي تريد أن تعيد سيطرتها
الظالمة عليها ، ومن جانب المماليك الذي استمرءوا حكمها وجعلوا منها مسرحاً
لخصوماتهم وحروبهم . وعلاج ذلك أن يؤلف جيش مصري خالص يبدأ
تسكويته بنحو ١٢ أو ١٥ ألف جندي^(١) . وهذا الجيش المصري كافٍ
لحصص الأتراك في الصحراء إذا حاولوا الرجوع إلى مصر مرة أخرى ،
وللقضاء على المماليك في داخل البلاد .

وكان المعلم يعقوب وهو يفكر ويتحدث عن حكم مصري خالص ،
وحاكم مصري منفرد بالحكم موصوفٍ بالوطنية والعدالة والحرص على
خير بلاده . كان وهو يفكر ويتحدث في ذلك يستذكر مثلاً قام في مصر
وشهده هو ، كما شهدته وسمعه إقليم من أقاليم مصر في الصعيد . وهو حكم
شيخ العرب همام ، زعيم الهوارة^(٢) وقد ذكر اسم هذا الحاكم فعلاً وتحدث
عن فترة حكمه وهو يفصل مشروعه للقائد الإنجليزي جوزيف آدموندس ،

(١) كان عدد سكان مصر في ذلك الوقت أقل من ثلاثة ملايين .

(٢) كان يقيم في « فرشوط » ويحكم منطقة واسعة من الصعيد . وكان نادر
المثال في كرمه وخلقه ، واسم الثروة والجاه : أنظر ترجمة له في الجزء الأول من
كتابنا : (دراسات في تاريخ الجبوتي ، مصر في القرن الثامن عشر ، ١٥١ — ١٥٤
من الطبعة الثانية) . وكان الجبوتي يسميه : « الأمير » شرف الدولة همام بن يوسف
ابن أحمد الهواري ، ملجأ الفقراء والأمراء .

وقال إن مثل هذه الحكومة المصرية الخالصة ستكون « من المؤكد محترمة ومطاعة ومحبوبة ». وأنها ستضمن العدالة لجميع المصريين. أكثريةهم المسلمة وأقليةهم القبطية على السواء . وأنه — وهو زعيم قبطى — يؤمن بذلك ويؤكدده ، وأنه يتحدث عن ذلك باسم طائفته المسيحية .

وكذلك يقول المعلم يعقوب إنه ، وهو يعرض مشروعه هذا لاستقلال مصر وحيادها ، مفوض من « البعثة المصرية » التى يوجد بعض أفرادها معه فى البارجة الإنجليزية وبعضهم لا يزال فى مصر ، ولكن من المجازفة إعلان ذواتهم وكشف أسمائهم ، خوفاً عليهم من انتقام الأتراك .

و « اسم البعثة المصرية » الذى اختاره يعقوب لجماعته يذكرنا باسم « الوفد المصرى » الذى تألف بعد ذلك بأكثر من قرن ، عقب هدنة الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٨ برئاسة سعد زغلول للسعى لاستقلال مصر وتخليصها من الاحتلال الإنجليزي . بل يكاد الإنسان أن يكونا متطابقين .

ثم يقول المعلم يعقوب إنه وأعضاء البعثة المصرية ، يشاركونهم فى ذلك عقلاء المصريين ، يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن حصول مصر على استقلالها : « يبدد ظلام الجهل والهمجية الذى يحيم على تلك البلاد الشهيرة ، التى

كانت مهد النور والعلوم والفنون ، بل مركز المدنيات الأولى التي نقلها الإغريق عنها... وأن استقلال مصر هذا سيجعلها ، بلا شك ، عامرة زاهرة غنية بمحصولاتها الغزيرة من أرضها الخصبة ومركزها التجاري في أفريقيا».

ثم يقول إن مراد بك كان يدرك مطامع الدول الأوربية في مصر ، وأنها تتجسس عليها وتعرف من أمورها الشيء الكثير وتتطلع لامتلأ كها ، وأن ذلك سيكون سبباً دائماً لتنازع الدول الأوربية . ومراد بك على حق في فهمه وفي تخوفه وفي استنتاجه ، وليس هناك مخرج من هذا كله سوى استقلال مصر وضمان حيادها . وهذه نظرة للمعلم يعقوب أظهرت الأيام فيما بعد صدقها وخاصة في القرن التاسع عشر ، عندما صارت « المسألة الشرقية » من المشا كل العالمية الكبرى ، كما نعرف .

ثم يعود المعلم يعقوب مرة أخرى إلى ذكر ضرورة الحرص في معالجة هذا الأمر والحرص على السرية التامة في شأن المتحدثين فيه ، فيقول : « إن البعثة المصرية متصلة بلا تحزب ، بالعناصر الوطنية المختلفة في مصر . ولها فروع منتشرة خفية ، وستبقى في خفية عن عيون الحكومة التركية في مصر . وهذا حذر لا بد منه توقيماً من الاستبداد المريب الذي لا يتأخر عن تضحية آخر فرد من الإخوان المشتغلين بهذا الأمر ، إذا علم ذلك... إن الذين خرجوا من مصر يستطيعون أن يكونوا في مأمن من الاضطهاد

والخطر . ولكن ذلك ليس شأن إخواننا في مصر ، لأنهم تحت السيف
والعصى . فهم مكرهون على التخفى والتظاهر بأنهم العبيد الغيورون
المخلصون للباب العالي « التركي » .

هذه خلاصة وافية أمينة لمشروع المعلم يعقوب لتحقيق استقلال مصر
الذى تحدث به إلى قبطان البارجة الإنجليزية وهى تشق مياه البحر الأبيض
من الإسكندرية إلى مرسيليا . وقد كتب المترجم « لاسكارس » وثيقة
هذا المشروع بعد وصول البارجة إلى ميناء طولون ، فى ٢١ سبتمبر من
سنة ١٨٠١ .

ولكن صاحب هذا المشروع وهذه المحاولة، ورئيس « البعثة المصرية »
إلى أوربا كان قد مات قبل أن يسجل المترجم « لاسكارس »^(١)
تفصيل ما تحدث إليه به صاحب المشروع : المعلم يعقوب .

فقد مرض يعقوب بعد رحيل البارجة بيومين ، وظل مريضاً إلى أن

(١) كل ما يعرف عن لاسكارس هذا أنه ولد فى سنة ١٧٧٢ فى بروفنس
— جنوب فرنسا — وأنه كان فى جزيرة مالطة عندما دخلها نابليون فى طريقه
إلى مصر ، ومن جماعة « فرسان مالطة » . ثم سار مع حملة نابليون إلى مصر .
وعند انسحاب الجيش الفرنسى منها ألحق بصحبة المعلم يعقوب وقامت بينهما صداقة
مشتركة زادها توثقاً ما كان يتمتع به لاسكارس من الذكاء وسعة الخيال .

مات بعد ستة أيام ، كما سبق ، في ١٦ أغسطس . ولم تطرح جثته في البحر ، كما جرت العادة ، بل حفظت في برميل من « الروم » ، وأنزلت في مرسيليا يوم ٢٢ سبتمبر ، حيث دفنت فيها .
وبذلك طوّت المقادير صفحة من كفاح مصر للحصول على استقلالها .
وطوى الموت المفاجيء بطلاً من أبطالها الذين حاولوا « تدويل » القضية المصرية بغية الحصول على هذا الاستقلال ، وعلى حياد مصر أيضاً .

مُؤرخ القومسيّة العربيّة

وعبد محمد علي

هذه بطولة لم تكن في موقف واحد ، أو عدة مواقف برزت في حياة إنسان ، وهذا بطل لم يكفيه أن يقف موقف البطولة أمام حادثة واحدة ، أو رجل واحد ، أو ظرف خاص . بل هي بطولة جابهت المواقف والأحداث جميعاً ، وهو بطل كانت حياته كلها موقفاً واحداً متلاحقاً متصلاً من البطولة النادرة والشجاعة الباقية الخالدة . وخاصة في ختام حياته ، حيث كان يستطيع أن يجد من مرضه ، وحاجته ، وشيخوخته عذراً للتّيقة أو التخلف ، أو المداراة . بل كان يستطيع أن يجد عند خصمه وعدوه : « محمد علي » المالَ والجاه والراحة ورغد الحياة . ولكنه مصرىّ عظيم ، عاش بطلاً ومات ميّتة الأبطال .

« ها نحن أولاء نرى مثلاً ناطقاً بقوة الحق وسلطان الصدق .. فمحمد علي الذي أزال دولة المماليك وزحزح ملك آل عثمان في مصر وهدّده خارجها ، وأسس ملكاً دام مائة وخمسين سنة ، واصطنع ما استطاع من حيلة وكيد ، لم يستطع أن يسكت صرير القلم ولا أن يطمس نور الحق ، وصدقت (م ٧ — بطولات عربية)

كلمة الله . . أما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال . »^(١)

أما صرير القلم الذى لم يستطع محمد على أن يسكته ، رغم ما اصطنع من حيلة وكيد ، فكان منه ذلك السجل الرائع الحافل الشيق الذى ألفه الجبرتي عن تاريخ مصر « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ومؤرخنا ، عبد الرحمن الجبرتي ، من أسرة عريقة ، نزع جده السابع — واسمه عبد الرحمن أيضاً — من « جبرت » وهو إقليم إسلامي فى الحبشة . وأقام بالحجاز زمناً ، ثم قدم مصر واستقر بها وقد بقيت مشيخة هذا الرواق : « الجبرت » فى الأزهر يتداولها أبناؤه وأحفاده ثلاثة قرون . حتى خرجت منهم ب وفاة عبد الرحمن الصغير هذا .

وكان الشيخ حسن ، والد عبد الرحمن ، عالماً واسع الثراء ، مرفه العيش ، كبير المنزلة . يعيش متنقلاً بين قصوره فى القاهرة ، وعلى شاطئ النيل ، فى بولاق . وكان صديقاً لكل أمير من المماليك ، الذين عاصروهم ،

(١) من البحث الذى كتبه الاستاذ أحمد حسن الزيات ، عن كتابنا « دراسات فى تاريخ الجبرتي ، مصر فى القرن الثامن عشر » وألقاه الأستاذ إبراهيم مصطفى عند ما أعلن « مجمع اللغة العربية » استحقاق الكتاب لجائزة المجمع الأولى عن البحوث الأدبية [جلسة المجمع العلنية لتوزيع الجوائز فى مساء يوم الأربعاء ١٨ مايو سنة ١٩٥٥] . ص : ٤٧ — ٥٠ من « مجلة مجمع اللغة العربية » الجزء — ١١ —

وللولاة العثمانيين الذين كانوا يوفدون من الدولة لحكم مصر . كما كان متين الصلة بعلى بك الكبير الذى استقل بحكم مصر فترة قليلة من الزمن والذى تحدثنا عنه فى الفصل السابق ، وكان يتقن اللغة التركية ، لغة الحكم والسيادة ، إذ ذاك . ويعرف علوم الطب ، والفلك . والموازن — ويجيد صنعها ونحريها — كما يعرف علوم الفقه . ويقول الشعر . وتولى ، وهو عالم ، بعض الوظائف الكبرى . فكان حاكماً على قلاع العريش ، والطور ، ومويلىح ، ثم قتل أحد عبيده فى قلعة منها ، فزهد هذه الوظائف وتركها . وفى سنة ١٧٥٤ « ١١٦٧ هـ » ، فى يوم من أيام الاعتدال ، بشر الشيخ حسن الجبرتى بأن قد ولد له غلام من إحدى سراريه الكثيرة . وأغلب الظن أنها كانت شركسية ، أو تركية . وكان حراً بالشيخ أن يتهمج قلبه ، وأن تطيب نفسه بهذه البشرى . ولكن هذه البهجة وهذا السرور كانا مشوبين بكثير من الحزن والقلق والتوجس . إذ كان قد ولد للشيخ قبل هذا الغلام ، نحس — وأربعين مولوداً ، بين ذكر وأنثى ، لم يمش منهم أحد .

وشاء الله أن يعيش هذا الغلام ، الذى سماه أبوه « عبد الرحمن » وأن يولد للشيخ بعده غلامان ، ماتا طفلين . ثم شاء الله أن يبقى عبد الرحمن هذا ، وحده ، من ذرية الشيخ . وأن يعمر حتى يجاوز السبعين . وأن يكون

هو مؤرخ مصر الحديثة ، ومؤلف « عجائب الآثار في التراجم الأخبار » .
وأخذت تنقرض — بموت عبد الرحمن هذا — أسرة الجبرتي ، بعد
أن بقيت ثلاثة قرون تنجب رجالا لهم في مصر صدارة العلم والخلق الكريم
ولهم كذلك كرامة المال والثراء .

وشاء الله أيضا أن تحترق ، بعد فاته ، المكتبة الحافلة العظيمة ، التي
تركها له أبوه ، والتي زاد فيها أيضا . وأن يحترق معها بيته ، في الصنادقية
قريباً من الأزهر . لذلك عاشت بنته وابنه — أو ابناهما على خلاف بين
المؤرخين — عيشة ضئيلة . بعد أن فقد منهم المال ، وأبعد عنهم العلم .
وفقدوا بذلك الصدارة والكرامة .

وكان أبوه محباً للأغاني والقصص . فكان يحدثه عما يعرف من أنباء
عصره . وقصص أصدقائه من الأمراء والمهايلك ، والولاة . ثم مات أبوه ،
وهو في الثانية والعشرين . وخلف له ثروة ضخمة ، مادية وأدبية . فقد
كانت لأبيه ، كما ذكرنا ، مكتبة عامرة بنفائس المخطوطات ونوادرها .
كما ترك له مكانا بارزا صرموقاً عند العلماء والأمراء على السواء .

هذه الثروة وتلك المسكنة ، مكنتا له من صداقة الأمراء والولاة .

فكان على صلة وثيقة بهم ، وهو بذلك مؤرخ عليم ، دقيق .
متصل بأهل السلطان . وخاصة بمحمد بك الألفى آخر العظماء
من المماليك .

ولكن هذه الصلات التي كانت تصل إلى الصداقة المتينة ، لم تحل
بينه وبين أمانة المؤرخ ، فهو يقسو أشد القسوة على أصدقائه من كبار المماليك
والولاة إذا رأى في تصرفهم ما يبرر هذه القسوة ، بل يمدح الفرنسيين
ويطري نابليون ، على أشياء يرى أنها تستحق الإطراء .

ومن هنا نستطيع أن نؤكد أنه لم يختص حكم محمد علي بنقده ،
لخصومة بينهما ، كما يقول بعض المؤرخين . بل كان يقول في محمد علي
ما يعتقد أنه حق ، كما كان يقول في أصدقائه مثل ذلك . وقد ذكر
أنه حين ألف تاريخه لم « يقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير ، أو طاعة
وزير أو أمير . ولم يداهن فيه دولة بنفاق . أو مدح أو ذم مبين للأخلاق
لميل نفسي ، أو غرض جسماني » وقد لازمته هذه الشجاعة والأمانة حقاً
في جميع ما كتب وسجل من حوادث عصره .

وقد كانت هذه الشجاعة والأمانة سبباً لشقاء كبير لقيه المؤرخ الشيخ في آخر
حياته ، كما نرى بعد قليل .

وهذا مظهر من مظاهر الشجاعة النادرة التي اتصف بها الجبرتي ،
ولازمته حياته كلها . حتى في أشد الظروف والأحوال قسوة
ومرارة وعنتاً .

رائد القومية المصرية :

وحياة الجبرتي وتاريخه يجب أن ينالا ، في هذا العهد خاصة عهد
الثورة والحكم المصري الخالص ، أضعاف مائتاً إلى اليوم من عناية .
وبكفيك من حياته أنه قتل ، أو قتل ابنه ، غيلةً في عهد محمد علي ، لأنه
كان أميناً على مصريته ، صادقاً في تصوير ما لقيت هذه القومية عن عنت
وظلم ومحنة على يده . مسجلاً كل ما استطاع أن يسجل ، بأمانة وتفصيل ،
إحساساته نحو هذا البلاء الذي لقيه شعب مصر من محمد علي . والوقائع ،
أو ما علمه من الوقائع ، التي أثارت عنده هذا الإحساس .

فالجبرتي هو رائد القومية المصرية الحديثة . نقرأ تاريخ مصر منذ
عرفها التاريخ ، فنراه كله تأريخاً للموك والوزراء والعمال والولاة والعلماء
وما جرى من الحروب والغزوات والوقائع . حتى ابن إباص ، وهو المصري
الذي سجل تاريخ مصر إلى الفترة التي بدأ بعدها الجبرتي ، فكان

أقرب المؤرخين إليه زمنًا ووشيجةً وآصرةً ، حتى ابن إياس لم يشذ
عن سابقه .

ولسكنا نقرأ الجبرتى ، فنجد — إلى جانب التاريخ الصحيح —
العاطفة المصرية الصادقة — ماعدا فترة الحملة الفرنسية — ونجد مصر يا صديقا
مخلصاً يغضب لما يقع على قومه من الأذى ، ويثور ، ويسجل ثورته ،
لما ينالهم من ظلم الأتراك أو المماليك . ويغضب أيضاً لما يجد عند قومه
أو عند بعضهم من التخلف والجهل والتمسك بالخرافات والأباطيل . أو ما يجد
عندهم من ضعف الخلق . فهو يكتب ، ويسجل ويؤرخ ، ولسكنا يوجه
ويوحى ويؤدّب ويزجر .

وعند الجبرتى وحده ، دون المؤرخين جميعاً ، نحس أننا نعيش
في بيئة مصرية خالصة . نجد الأسماء ، والأماكن ، والعطفات والدروب ،
التي لا تزال نرى كثيراً منها ، ونسير في كثير منها في القاهرة وغيرها
من المدن ، وعندما نقرأ له وهو يحدثنا عما جرى من هذه الأسماء ، أو بين
هذه الأماكن ، من حوادث ووقائع ، نجد كأننا عدنا بالتاريخ ، أو عاد
بنا التاريخ ، إلى حيث نعيش بين هذه الأماكن والرجال . ونشهد بأعيننا
وعواطفنا هذه الوقائع والأحداث .

وعنده وحده ، نجد التعابير المصرية الخالصة والأمثال المصرية البهتة ،
التي خلقتها البيئة المصرية ، وأنبقتها عواطف قومنا وأخلاقهم ونظرتهم
للحياة والأشياء . ونجد عنده وحده تراجم طائفة كبيرة من عامة الناس
وأوساطهم . بل سوقتهم . وهي تراجم لها أهمية كبرى في فهم أسرار
الحياة المصرية ، ودراسة القومية الذاتية لشعبنا ، وما فيه من خصائص ،
وما يؤثر فيه ويوجهه من عواطف ومؤثرات . وكيف يتأثر بها ، وإلى
أى مدى يتأثر ، ويحكم .

وعنده كذلك ، نجد تفصيل شيء كثير من هذه الثورات ، والهبات
التي هبها شعب مصر في وجه حكامه الظالمين ، من الأتراك والمماليك .
وتفصيل كثير من هذه الثورات العاتية ، التي ثارها شعبنا على غزاته
الإنجليز ، وفاتحى أرضه الفرنسيين . وهو لم يسجل في ذلك مواقف المكافحين
من سادة القوم وزعمائهم ، كالسيد عمر مكرم ، والشيخ السادات وغيرها .
بل سجل مواقف رائعة من البذل والبطولة والشجاعة والتضحية ، لقوم
من « أولاد البلد » في القاهرة وأبناء البلاد في الأقاليم .

والجبرتي يسجل حوادث الأيام ، على الطريقة التي يعرفها أهل عصرنا
اليوم « بالذكراات » . يقيّد وقائع كل يوم في « جذازات » أو « طيارات »
كما يسميها هو . أو « يوميات » ، كما يسميها الناس . وكان يريد أن يراجع

هذه اليوميات ، وينسّقها ليُجعل منها كتاباً يقرأ . ولكنه مات قبل أن يفعل ذلك . ونحن نحمد الله على أنه لم يفعل . لأنه لو راجع ونسّق . لكان من المرجح أن يهمل شيئاً كثيراً مما كتب ، ولقد كنا بذلك أشياء ذات قيمة كبيرة في تاريخنا . وقد انفرد الجبرتي بتدوين فترة منه ، لم يسجلها أحد سواه .

ولكن كتابه جاء ، بهذه الصورة ، أشبه شيء بصحيفة يومية ، تسجل الحوادث الواقعة بلا ترابط ولا توحيد أو تأليف . فترى الرجل أو الحادث ، يذكر في موضع من الكتاب . حسبما تجيء به ، أو بها ، المناسبة . ثم يذكر الرجل ، أو الحادث ، مرة بعد مرة لمناسبة أخرى ، وفي يوم آخر .

لذلك يجد القارئ مشقة بالغة ، وعسراً شديداً ، وعناء ما بعد عناء . في جمع هذه الشوارد ، وربط الحوادث بعضها إلى بعض ، والتأليف بين الوقائع حتى يجعل منها تاريخاً متاًلفاً متناسقاً . وقد ظلمت أربع سنوات أقرأ « عجائب الآثار » هذا ، وأراجعه . وأجمع الحوادث والتراجم بعضها إلى بعض . حتى استطعت أن أجعل منها تاريخاً لم أرضَ عنه كل الرضا . على رغم ما قيمتُ في ذلك من المشقة والعسر والعناء الشديد . وعلى رغم ما لقي كتابي هذا من التقدير والثناء .

وتاريخ الجبرتي سجل حافل ، رائع ، صادق ، لحوادث السنين التي
أرّسها . لم يترك جليلا ولا صغيرا رآه أو سمعه ، إلا ذكره . فهو يترجم
للماليك ، ولآخر أيامهم ورجالهم . ولشيوخ الأزهر . والولاة ، والعلماء ،
والأشراف ، والتجار . ويترجم لخفير باب زويلة ، والخياطين ، والأولياء ،
والصناجق ، وخادم النعمال في المشهد الحسيني ، وللشعراء والكتاب .
وقد سجل صوراً رائعة للحياة الاجتماعية والفكرية في عصره . ثم يترجم
للشيخ المجذوب الصاحي — وكان حَمَّالاً في دمياط — وللابجانيين ، ومدّعي
النبوة ، ويذكر أسعار الغلال ، واللحم ، والسمن ، والذهب ، والتمر ،
واللبن ، والفحم والخطب . ووقوع الأوبئة والطواعين ، وعمارات المساجد
والبيوت ، ويذكر الفيل الذي دخل القاهرة من الهند ، ويفصل حادث
« الشيخ صادومة » بما فيه من خروج على ما تواضع عليه الناس من حياء
وأدب وتحريز : ويروي من شعر الشعراء في عصره قدراً كبيراً مما نسميه
« بالأدب المكشوف » . ولكنه يصوّر حياة المجتمع في القاهرة في أصدق
صورة وأبرعها وأقواها . ويزيد من قيمتها أن حياة هذا المجتمع التي « عرفها
ولا نزال نشهد بعض ظواهرها إلى الآن ، قد بدأت تُغير عليها وتمحوها ظواهرُ
الحياة الأوربية الحديثة . فأصبحت — وهي قطعة من صميم حياتنا
وماضيها — نكاد لا نعرفها ولا نتميئها .

وقد سجل الجبرتي ذلك كله وهو يقول : — « إني لم اخترع شيئاً من تلقاء نفسي . والله المطلع على أمرى وحدسي » ويقول : « لا أكتب حادثة حتى أتأكد صحتها بالتواتر والاشتهار » .

ونحن نستطيع أن نطمئن كل الاطمئنان إلى أمانته العملية والتاريخية . ويقول بعض مؤرخيه إنه وضع في آخر حياته كتاباً عن الثورة اليونانية . وهذا يدلنا على أنه كان يتابع أحداث عصره الخارجية ويسجلها ، كما تابع أدق أحداث عصره وسجل وقائعها وتفصيلها وأسرارها .

هذا بعض ما يجده المؤرخ السياسي ، أو القومي ، عند الجبرتي . ويحد مؤرخ الأدب فوق ذلك ، كثيراً من تراجم الشعراء المصريين ، وكثيراً من الشعر المصري الخالص . والنثر أيضاً . وهو إن لم يكن كله على مستوى رفيع من الشعر والنثر ، فإن فيه شيئاً لا بأس به . وشيئاً يمكن أن يوصف بأنه قارب الجودة . وهذا وذاك كله ، على أي حال ، هو أدب مصر وشعرها في فترة طويلة من حياتها ، لا بد أن يسجل ، وأن يدرس . وأن يعنى به أتم عناية وأحفظها . وكل هذا الشعر والنثر ، نستطيع أن نخرج منه بأشياء بالغة القيمة من الناحية الاجتماعية والقومية ، إذا درسناه دراسة علمية دقيقة . نستطيع أن نفيد ذلك حتى مما جمع من الشعر الرديء . لأنه يسجل

أحداثاً مصرية ، و يترجم عن عاطفة مصرية ، و يصوّر بيئة مصرية .
أليس من الخير أن تخصص إحدى جامعاتنا المصرية كرسيًا لدراسة
رائد القومية المصرية هذا ؟

لقد لقي الجبرتي في آخر حياته ، إلى أن مات ، من البأساء والشدة
والمرض والحزن شيئاً كثيراً . ولقي ، هو وتاريخه ، بعد موته ، شيئاً كثيراً
أيضاً من الغمط والسنكران والجحود ، لأن الباحثين والمؤرخين كانوا
يتحاشونه وتاريخه ، مداراةً لأسرة محمد علي ، أو خشية من بطشها .
وقد آن الأوان ليعرّف لهذا الرجل حقه ، وليقدر قدره .

مؤرخ شجاع أمين :

كان الجبرتي يدين بولاء واحد ، هو ولاؤه لمصر وحدها . وهذا
سرّ ما نجده من ظاهر التناقض وظاهر الشطط في تدوينه لأحداث عصره
وتسجيله سير العظماء من رجاله . فهو تارة يبدو صديقاً مدافعاً عن المالك ،
يمدحهم ويذكر مآثرهم وأخلاقهم وصفاتهم ، بإكبار وتعظيم .
وتارة نراه يذمهم ويسخط كل السخط على أعمالهم وأخلاقهم وصفاتهم .
وهو مع كراهته القوية الواضحة المتأصلة ل محمد علي ، يسجل له بعض

ما أقدم عليه من عمل صالح قليل كان يرى فيه الجبرتي منفعة لمصر . وهو ، مع صدق تدينه وإيمانه ، يمدح في مناسبات كثيرة ، الفرنسيين وقائدهم نابليون . ولكن هذا كله كان ، كما قلنا ، تناقضاً ظاهرياً فقط . فقد كان الجبرتي المؤرخ يقيس الأحداث والرجال بمقياس الصدق والحقيقة والخير العام . فهو يمدح للماليك ما يصنعون من خير . ويذم لهم ما يقتربون من شر . وكذلك حاله مع الفرنسيين وحاله في كل ما كتب وسجل . وقد التزم في مقدمة تاريخه أن يكون هذا حاله في كل ما يكتب .

وتأريخه للكبار من علماء عصره ، وخاصة للشيوخ : الشرقاوي والمهدي والسادات ، أكبر دليل على أنه صدق وعده والتزم بمقاييسه العامة التي لا تتحيز ولا تتأثر بصداقة ولا خصومة ولا وشيعة . وكذلك تراجمه لكبار الماليك . وخاصة إبراهيم بك ومراد بك . فقد كان في ذلك كله مصري القلب والعاطفة ، يزن أعمالهم وتصرفاتهم بمقياس واحد ، هو جدوى هذه الأعمال لمصر ، والإخلاص والنفع العام في هذه التصرفات . والمقاييس الرفيعة للأخلاق . لذلك كان شديد القسوة على العلماء .

والجبرتي يمدح ، من غير تحفظ ، أحياناً . صنيعاً للفرنسيين مثلاً . ويبدو لنا أن هذا كان شططاً منه وجراًة على مقدرات زمنه وشعور المعاصرين . له وتقديرهم للأمور والأشياء . وقد كان كذلك يوم كتبه في واقع الأمر .

ولسكنك بعد التأمل ، وبعداً أن تزيل عن هذا الصنيع أو هذه الصنائع حدود الزمان والمكان والبيئة ، تجد الجبرتي على حق في مدحه • وتجده قد جمع إلى التزام الحق ، تلك الشجاعة التي لا يستمسك بها سوى أصحاب الخلق والفضائل من الناس والمؤلفين • وأنه كان مصرى العقل حين مدح وخالف شعور قومه وارتفع عن مستوى معاصريه • لأنه كان يفكر في خير مصر ومستقبل أحوالها وخير أهلها • ولو أنه آلم شعورهم في إبداء رأيه وجبهتهم بصراحته التي لا تراوغ ولا تدارى • ولسكنك عندما تقرأ الجبرتي ، تجد نفسك كأنما لم تخرج من شارع « الغورية » أو « باب الشعرية » أو « الحسينية » . تجد هذه الأحياء بمنازلها وناسها وأحداثها التي تحس أنها وقعت في أمس قريب • وكأنك تقرأ صحيفة تسجل حوادث مصر الحقيقية « الوطنية » وترسم في صورة قوية بارعة صادقة حياة أهلها ومجتمعهم وعواطف قلوبهم وانفعالات نفوسهم حينما وجدوا من كل بيئة وطائفة ، من « أولاد البلد » ، إلى العلماء والماليك والحكام والنساء ومجاوري الأزهر وخدم المساجد و « مجاذيب » الأولياء وأبطال الشعب الذين أذاقوا أعداء وطنهم من الفرنسيين والإنجليز والأتراك أشد البلاء وأنكاه •

وتجد عند الجبرتي ما لا تجد عند غيره من الألفاظ والتعابير

والاصطلاحات المصرية الخالصة التي لا زال نسمع وننطق بشيء كثير منها إلى الآن . نجد « يتحدث » عن « خطتنا » بالصناديقية . وأن النار فيها « رعت ووجت » وأن النيل « انهبط » وسعر القمح « شطح » . وثارت « كرشة » أى قام زحام وتدافع . وأن فلانا « قشان » أى مفلس « ويتحنجل » فى مشيته . وزاد « تنطيط » الأولاد . و « رقرق » له أى تأثر وعطف . وشيء كثير من مثل ذلك . كما نجد فى صفحات كتابه السكينة أمثالا مصرية عريقة خالصة لا نسمعها فى غير مصر . ولا فى غير أوساطها الشعبية العريقة وحدها . نجد مثل « قارب شبيحة الذى يأخذ المليح والمليحة » ونجد أصل قصته ومضربه . كما نجد المثل المصرى « كل الوقايع زلابية » . فأنت فى كل قصة وحادثة وصفحة تحس إحساساً قوياً بتلك الروح المصرية المهيمنة وذلك الطابع الوطنى القاهرى بكل مميزاته وخصائصه . تجد ذلك فى الحادثة والقصة والترجمة والشعر ، والأسلوب أيضاً كما رأينا .

صورة قمره من الزمن :

سجل الجبرتي حوادث الفترة الأخيرة من القرن الثانى عشر الهجرى ، وأوائل الثالث عشر . وكان فى تدوينه لهذه الحوادث مؤرخاً

من الطراز الأول . يشاهد ويرى ويسمع من أبيه وشيوخه وأصدقائه .
ثم يدون ويقيّد يوماً بعد يوم . ولا يكتفى بالمشاهدة والسماع . بل يتجسس
ويبحث ويقابل . ويقصد إلى المساجد والقبور ليراجع ما كتب على
الأبواب والحوائط وشواهد القبور من التواريخ والأسماء والحوادث . حتى
يطمئن إلى ما سمع قبل أن يضمّنه كتابه . وهذه الفترة التي يسجل الجبرتي
تاريخها عما شاهد بنفسه أو سمع عن شيوخه وأصدقائه وأصدقاء أبيه ،
وعما شاهد وراجع من الوثائق والكتب ، تسبقها فترة أخرى روى
أحداثها وأرخ لها بقدر ما مكنته أحواله وظروفه وإمكانات زمنه .

لذلك نجد أنه يؤرخ من حيث وقف ابن إياس « ٦٢٨ هـ » وينتهي
تاريخه بنهاية سنة ١٢٣٩ « ١٨٣٠ م » . وفي هذه الفترة الأخيرة خاصة
نجد صورة مصر فيما يقرب من قرن من الزمان . نجد لها سجلاً حافلاً جامعاً
دقيقاً . لم يترك أمراً جليلاً أو صغيراً إلا ذكره وقيّده بإفاضة وأمانة . يترجم
— كما أشرنا من قبل — للماليك ، أمراء مصر ، ولشيوخ الأزهر ، والولاة
والأشراف والتجار والعلماء وخفير « باب زويلة » والشعراء والخطاطين
والسناجق « رؤساء الجند وحكام الأقاليم » والحمالين والنساء
والمجاهدين والمجانين . ويسجل أسعار الغلال والسمن والتمر والخطب
واللحم والخبز وعمارات المساجد والبيوت والترع ووفاء الفيل في كل سنة .

أما الصورة الفريدة التي تجعل لتاريخ الجبرتي منزلة لا تدانيها منزلة ،
فهى تلك التي سجل فيها حياة المجتمع المصرى عامة ، والقاهرة خاصة ،
فقد تضمنت هذه الصورة ذخيرة لا تنفد ولا تقدر قيمتها التاريخية والاجتماعية .
ويستطيع الفنان الموهوب أن يخرج منها عشرات القصص والمسرحيات
ذات الطابع المصرى العريق الصادق الخلاب .

وقد لقي الجبرتي ، فى غير وطنه ولغته ، عناية أحفل مما لقي فيهما . ترجم
كتابه إلى الفرنسية ، ونشر فى تسعة أجزاء . تضمنتها ثلاثة مجلدات ،
وطبعت هذه الترجمة فى المطبعة الأميرية بين سنتي ١٨٨٨ و ١٨٩٦ ، وقام بها
أربعة هم : شفيق بك منصور يكن ، وعبد العزيز بك كحيل ، وجبرائيل
نقولا كحيل بك ، واسكندر عمون افندى . وذكر هؤلاء فى مقدمتهم
لهذه الترجمة أن نوبار باشا هو الذى أوحى إليهم بها ، وأن يعقوب أرتين
باشا كان معيناً لهم على إنجازها ، وطبعها .

وقبل ذلك ترجم ، إلى الفرنسية ، القسم الذى كتبه عن الحملة الفرنسية
على مصر . ترجمه المسيو كاردان^(١) وطبع هذا القسم ، بالفرنسية ، سنة ١٨٣٨
وهى السنة التى مات فيها المترجم . وبعد وفاة الجبرتي بثلاث عشرة سنة . وقبل

(١) كان مترجماً للقنصلية الفرنسية فى مصر ، ومات فى سنة ١٨٣٨ .
(م ٨ — بطولات عربية)

أن يطبع تاريخه ، بالعربية ، بأربعين سنة . كما ترجم هذا القسم نفسه إلى اللغة التركية ، بأمر السلطان سليم الثالث (١٧٨٨ — ١٨٠٨) وجعل عنوانه . « إنقاذ مصر من الفرنسية » وطبع في حياة الجبرتي .

وبقى تاريخ الجبرتي ، بالعربية ، محجوباً ، أو ممنوعاً حتى أذن الخديو توفيق بطبعه . فطبع لأول مرة بالمطبعة الأميرية سنة ١٨٨٠ ، ولكن هذا التاريخ الحافل الفريد ظل — مع ذلك — مهملًا محجوداً ، بسبب عسره وصعوبته التي أشرت إليها ، وبسبب عنفه في خصومة محمد علي . وإني لأجد كثيراً من الرضى والعبطة إذ أرى الباحثين والكتاب والمؤرخين والصحافة والإذاعة ، بدأت تظهر شيئاً من العناية بهذا المؤرخ وتاريخه الذي صور فيه أحداث وطننا ورجاله . وحياته الأدبية والاجتماعية أروع صورة وأصدقها وأوفاهها .

وإني لأرجو أن تزيد وتتضاعف ، العناية به وبتاريخه . وسيجد الباحثون ، في سيرته وسيرة أبيه أيضاً ، أشياء ترضى عنها نفوسهم ، كما يجدون في تاريخه ، لو صبروا عليه ، ذخائر وكنوزاً تستحق ما يلقون في سبيلها من مشقة وجهد . ويجدون فيه وحيًا فياضاً لصور وأقاصيص تصور حياتنا المصرية الشعبية تصويراً رائعاً خلاصاً .

نهاية ونهاية :

أما النهاية الأولى فهي نهاية كتاب الجبرتي هذا . فقد لقي هذا الكتاب نهاية سعيدة موفقة وتقديراً من الباحثين والعلماء في عصره قلّ أن لقيها كتاب آخر ، تلقاه الخاصة في حياته بالتقدير حتى اقتبس منه شيخ الإسلام عبد الله الشرقاوي فصلاً كاملاً عن « فقهاء الشافعية » ونسبه لنفسه . وقد رأينا أن قسماً منه ترجم إلى اللغة التركية في حياة الجبرتي وبأمر من السلطان سليم الثالث ، وهو القسم الخاص بالجملة الفرنسية . وأن هذا القسم ترجم إلى اللغة الفرنسية وطبع بعد موت الجبرتي بثلاث عشرة سنة فقط ، ثم ترجم الكتاب كله بعد ذلك إلى الفرنسية في تسعة أجزاء وطبع في نهاية القرن الماضي ، ولقى تقديراً من نوع آخر ولكنه شهادة ما بعدها شهادة على قيمته وخطره . فقد جرع محمد علي مما كتبه الجبرتي في سيرته فحاول أن يترضاه ويرشوه — كما ترضى صديقه الشيخ حسن العطار ورشاه — فمرض عليه إمامة قصره في شبرا ، فأبى الشيخ عليه ذلك ، كما يقول بعض مؤرخيه . وأراد محمد علي أن يحبط عمله ، فأمر شيخ الأزهر ، الشيخ محمد العروسي ، بأن يكلف أحد العلماء كتابة تاريخ يعارض به تاريخ الجبرتي . فكلف الشيخ خليل الرجبى الشافعى بأن يكتبه ، فكتبه

مدحاً كله في محمد علي وإشادة بذكره . وكذلك لقي تاريخ الجبرتي تقديرا من هذا النوع من أسرة محمد علي بعد ذلك ، فقد ظل السكتاب محجوبا أو ممنوعا من الطبع حتى أذن توفيق بطبعه كما رأينا . وقالوا إنه لم يأذن بطبعه إلا بعد أن حذف كثيراً مما سجله في سيرة محمد علي .

أما النهاية الثانية فهي نهاية الجبرتي نفسه ، وهي نهاية جذيرة بهذا البطل . فقد ذكر كثير من المؤرخين أن محمدا علياً اختياريه إماما ومؤقتا للصلاة في بلاطه — وإن كان هو لم يذكر ذلك — وقد كان محمد علي يرمي بذلك إلى غايتين . أولاها أن يستميل إليه هذا المؤرخ ويتراضاه بالمال والقربى ، والثانية أن يرقب أعماله وتصرفاته . ويتحایل حتى يرى أو يسمع شيئا مما كتب عنه ، وكان الناس يتناقضون أنه ينقده فيما يكتب ، ونقل إليه صهره محمد بك الدفتار ، أن الشيخ حقا كتب فيه ما لا يرضيه ، وأنه يستطيع أن يجيء إليه ببعض ذلك .

جريدة محمد علي

وفي ليلة ١٧ رمضان « ليلة القدر » من سنة ١٢٣٧ — ١٨ يونيو ١٨٣٣ م — كان الشيخ عائداً من قصر محمد علي في شبرا ، وكان الطريق

بينه وبين القاهرة طويلاً غير مأهول، فخرج عليه جماعة من الناس فأمسكوا به وخنقوه، ثم أنزلوه من فوق حماره وربطوه بقدمي الحمار، فلما أصبح الصباح رآه الناس وعرفوه، وكانت إلى صدره دفاتر مكتوبة «واضطرب لآب» لرصد النجوم والسكواكب، وقال الناس إن قاتليه كانوا من رجال محمد علي، ومن المصادفات الغريبة أن هذا التاريخ هو الذي أسقطت فيه الثورة أسرة محمد علي، بعد مائة وإحدى وثلاثين سنة.

ويقول بعض المؤرخين، الذين يريدون تبرئة محمد علي من قتله، إن الذي قتل هو ابن له كان اسمه «خليل»، ولكن ذلك لا يغني شيئاً. فهم يقولون إن الشيخ المؤرخ حزن على ابنه هذا حتى ذهب بصره، ثم توالى عليه الأسقام والأوجاع حتى مات، فهو إذا لم يكن قد قتل بالخنق في رأيهم، فقد قتله الحزن على ولده الذي قتله رجال محمد علي، ونكون — إذن — أمام جريمتين، لا جريمة واحدة.

وقد أصيب الجبرتي، بموت ابنه الأكبر علي هذه الصورة، وهو بين المرض والكبر والضيق، بنازلة حطمت حياته. وكان بيته، كما رأينا من قبل، قد احترق قبل ذلك وحرقت فيه المكتبة العظيمة الحافلة التي خلفها أبوه. فترك الكتابة والتأليف، وانقطع عن القراءة، وألح عليه

الحزن ، وأكثر من البكاء حتى ذهب بصره . وبقى في داره مريضاً حزيناً أعمى ، حتى مات سنة ١٢٤١ « ١٨٣٥ » وأعقب بنتاً عاشت من بعده فقيرة مغمورة . وولداً أو ولدين على خلاف بين المؤرخين .

وهكذا كان انتقام محمد على الغادر من بطلنا المصرى الشديد المراس الملح في خصومته وتجريحه وتسجيل آثامه .

ومحمد على له كل العذر — في تقدير عصره وعُرفه — في أن يصطنع كل حيلته وكيدته ليخفى تلك الصورة الحزينة المخزنة التي رسمها له الجبرتي ، والتي سجل فيها ، بأمانة وصدق ، تاريخ الفترة الأولى من حكم محمد على . وتلك المحاولات والمداهنات والآثام التي أقدم عليها واقتربها ليصل إلى الانفراد بحكم مصر وليفتزع السلطان من أيدي المماليك والعثمانيين ، على أن يكون لأهل مصر . فلما انتزعه كان له وحده . ولم يرَ أهل مصر منه إلا القسوة والشر والظلمة .

ولسكن الخصومة الحادة التي نراها عند الجبرتي نحو محمد على ، ليس مردّها عاطفة كراهة شخصية له . بل مردّها أن الجبرتي كان غير موزع القلب بين وطنه وقومه ، وبين أصحاب السيادة والسلطان فيه . كما كان كثير من كبار عصره .

بطل لم ينل حقه من التكريم :

وقد مرت ، قبل سنوات ، ذكرى مولد هذا البطل المصرى العظيم ، لمرور مائتى سنة عليها . وأرى أننا لم نوفه حقه ولا بعض حقه فى هذه الذكرى .

وأعتقد أن الفرصة ما تزال قائمة ، بل هى قائمة مليحة فى إلزام جمهوريتنا العربية ، وشعبها أن تمجد ذكراه وتحى سيرته ، لعلها أن تعوض عليه وعلى من بقى من أسرته بعض ما لاقى من شقاء ومحنة فى عهد أسرة محمد على ، فقد كان ، كما رأينا ، أعنف خصومه وأشجعهم وأثبتهم فى هذه الخصومة ، وأصبرهم على بلائها .

هو بطل من أبطال مصر الذين كاثخوا الظلم والطاغوت ، ولعله كان أولهم جميعاً فى العصر الحديث . وهو كذلك مؤرخ من أعظم المؤرخين وأصدقهم . وقد كان ، من غير شك ، أسبغهم جميعاً فى تسجيل تاريخنا المصرى الخالص بكل أمانة وبراعة ومقدرة وإخلاص . حتى سمى بحق : « مؤرخ القومية المصرية » .

وكل دعوة للإشادة بالجبرتى . والتذكير به . و بالأحرى لدراسة

تاريخه . هي دعوة من أكرم الدعوات وأبرتها بمصر وقوميتها وعروبته .
وخاصة في عهد الثورة .

وليس برّ هذه الدعوة آتياً من الناحية العاطفية وحدها . فإن الجبرتي
يعتبر مثلاً من أشرف الأمثلة للرجولة وقوة العقيدة وصلابة الإيمان
وشرف الكفاح في سبيل الرأي والحق حتى الموت . كان صديقاً حميماً
لكبار الماليك ، وكذلك كان أبوه من قبله أثيراً عند علي بك الكبير ،
ومحمد بك أبو الذهب وأمثالهم ، ولكن المؤرخ الأمين ، لم يعرفهم
وأمثالهم من النقد ، وتسجيل الأخطاء والآثام التي كانت تقع منهم .
وكان في استطاعته أن يكسب صداقة محمد علي ، وأن ينال من ماله
وجاهه ما يشاء . كما فعل صديقه الشيخ حسن العطار وغيره من كبار
العلماء ، ولكنه سجل الشرور التي ارتكبتها محمد علي في أول حكمه .
وذكر في سيرته وسيرة ابنه إبراهيم عجائب من الظلم والغدر والقسوة تمار
فيها العقول . وظل يسجل ذلك ويدونه حتى مات . مات قتيلاً بيد رجال
محمد علي — كما يقول بعض المؤرخين — أو مات كمدأ وحزناً علي ابنه
الشاب خليل ، الذي قتله رجال محمد علي باعتراف مؤرخيه ومؤرخي
« العائلة الخديوية الفخيمة » .

وقد وجدتُ — وأنا أدرس تاريخ الجبرتي وتاريخ مصر في القرن

الثامن عشر — أن كتابه «عجائب الآثار» هو المصدر الوحيد الذى استطعت الاعتماد عليه فى تسجيل السنوات السبع عشرة الأولى من حكم محمد على . المصدر الوحيد الذى يذكر بأمانة وتفصيل كثيراً من الشرور والفجور ، الذى مارسه محمد على وإبراهيم فى حكم مصر . وقد سجل ذلك بما شهد به بنفسه . أو سمعه من المحدثين الثقات .

وما حفظه لنا الجبرتى من صورة الحياة الاجتماعية والفكرية لوطننا فى القرن الثامن عشر . لا نجد له نظيراً على الإطلاق . فى كتاب آخر . لا فى كثر ولا كيفه . وكذلك ما كتبه عن السنوات الثلاث التى أقامها نابليون وجيشه فى مصر . وأثر ذلك فى حياة المجتمع المصرى .

لقد كان الجبرتى أول الثائرين على محمد على وأسرته ، ولقى فى ذلك محن الحياة كلها ، حتى الموت . ولقى كتابه من المصادرة والنشيت شيئاً كثيراً من عهد محمد على حتى عهد توفيق . فمن أجدر من صاحب هذه السيرة وهذا التاريخ بأن يكرمه عهد الثورة التى أنهت حكم هذه الأسرة واسقطتها من حساب الوطن ومن حساب الزمن . . . ؟

بطل تحت قلعة الجبل

[بعض المؤلفين وبعض النقاد يعترض على كتابة المسرحية باللغة العامية ، وبعض المؤلفين والنقاد يرى أن المسرحية تمثل وتشاهد ، ولكنها لا تقرأ . ولكني كتبت هذه المسرحية بالعامية ، وأنشرها لتقرأ . كتجربة] .

الأشخاص

- المعلم حجاج : رجل في حدود الأربعين ، قوى تبدو عليه
مظاهر الشجاعة والثقة بالنفس ، نظيف الثياب .
- المعلم خليل : رجل كبير السن ، هادئ ، تبدو على وجهه
مظاهر الطيبة والإخلاص واليقظة .
- المعلم مسعود : فيه ثورة هادئة ، ولكنها دائمة مثابرة .
- المعلم نصر : فيه ذكاء وحيلة وحيلة .
- الشيخ دردير : شيخ كبير السن له سمت ووقار .
- الشيخ شعراوى : شيخ متحمس متوسط السن .
- المعلم عصفور : شاب شديد التحمس مندفع .
- الحاج شاذى السكاكى : جبان منافق متردد .
- عوض : خفيرو جاسوس للأغا .

الفصل الأول

[دكان خضري على ناصية شارع ضيق بحى الرفاعى
بالقاهرة فى القرن الثامن عشر ، له بابان ، يجلس
داخل الدكان ، على دكة ، رجل ضخيم الجسم ، نظيف
الثياب ، فيه هدوء ومهابة ، وثقة بالنفس .
يقف إلى جانبه ثلاثة رجال من معاونه . و الجميع
يرقبون الصبية وهم يدخلون من الباب الآخر إلى الدكان
أقفاص الخضر من الكوسة ، والطماطم ، والملوخية
وغیرها]

الوقت : فى الصباح المبكر .

يدخل أحد المعاونين وهو يقول :

صباح الخير يا معلم حبجاج ، صباح النور يا رجاله . ماشاء
الله ، نحمد ربنا على خيره ، أنا شايف السنة دى الوارد
من الأرياف كتير . والخضار صاحب ، وخير ربنا كتير .

المعلم خليل : والله يا جماعة الوارد كتير ، والدنيا بخير ، حتى قلوب الناس

لسة برضه ربنا ممنعشى منها الخير . وأنا جى دلوقت للمعلم
حجاج ، فتّ على بيت اخونا المرحوم الحاج امبابى ، قلت
أمر على أولاده مساكين أطمئن على حالهم . أمهم مسكينة .
مات راجلها وساب لها سبع عيال مفيش حدمهم بيتكسب
قرش . وكنت جايب للأولاد شمامتين ، قلت آخذ لهم
رخرين حاجة . والله يا جماعة أنا فرحت ، وحمدت ربنا
لما شفت الأولاد لابسين نظيف ، وصحتهم كويسة ، كان
أبوهم مامتش . وقالت لى أمهم إن الدنيا بخير . وإن الولد
الصغير أخذه الحاج نوار العطار فى دكانه ، يعلمه ويدّيه كل
يوم خمسة بارة . والحاج نوار ، الله يبارك له ، يدّى الولد كل
آخر نهار بقجة لبقية العيال . يوم فيها قمح ، ويوم فول ،
ويوم لوبية ناشفة ولآرز ، وبعض أيام رطلين لحمة ، والله
يا جماعة فرحت قد إيه لما لقيت ولاد أخونا الحاج امبابى
مستورين والحمد لله ، أصحاب أبوهم ما بينسهومش أبداً .

المعلم مسعود : الدنيا بخير يا جماعة ، وقلوب الناس مليانة رحمة . بس .

الراجل اللّی قاعد فوق دا ، ومش راضی ينزل داراح
ينزّع الرحمة من قلوب الناس ، ويوقّعها في بعض .

المعلم نصر : قصدك مين . . ؟ الباشا اللّی في القلعة ، ! ؟

المعلم مسعود : أيوه . هو فيه غيره . مفيش يا جماعة حدّ قادر عليه . . . ؟
أمال احنا رجّاله ازّاي . . ؟ والله دا عيب علينا .

(يدخل شيخ معمم كبير السن له سمت ووقار)

المعلم نصر : أهو سيدنا الشيخ دردير هو اللّی عارف الأخبار . ويحكينا
اللّی حصل من الراجل دا ، اللّی عمّال بيظلم في الناس ،
وما يتّيش ربنا .

المعلم حجّاج : يا ولد يانص . كرسي وقهوة لسيدنا الشيخ .

(يجلس الشيخ إلى جوار المعلم حجّاج)

المعلم خليل : إيو لله يا سيدنا الشيخ . قول لنا إيه اللّی عملوه المشايخ مع
الباشا في القلعة .

الشيخ دردير : والله اللّی حصل إن أسیادنا المشايخ والسيد عمر مكرم ،

لما رفض الباشا إنه ينزل بناء عن طلبهم ، اجتمعوا في بيت

(م ٩ — بطولات عربية)

القاضي واتفقوا على إنهم يتخلصوا منه بالقوة . ويحرضوا
الناس عليه . والباشا بعث جواسيسه يعرفوا المشايخ ببيعهم
إيه . ولما بلغوه إن بيت القاضي مليان بالعلماء والناس ،
والعالم كله معهم . أرسل نائبه يدعوهم للحضور عنده .
ولسكنهم رفضوا . وخرج نايب الباشا والناس وراه تهلل ،
وتشتم وترميه بالحجارة وهو خائف منهم ليقتلوه . و بعد
كده بيوم اجتمع المشايخ مرة ثانية وقرروا إنهم يخلعوا
الباشا . وذهب بعضهم له يبلغه القرار . فغضب عليهم جداً
وقال لهم أنا متولى من قبل السلطان ولا أعزل بأمر
الفلاحين .

المعلم مسعود : الله أكبر . الفلاحين يعنى اللى هم احنا . . !

المعلم خليل : وبعدين إيه اللى جرى ياسيدنا الشيخ دردير . . !

بعد كده المشايخ كلهم غضبوا ، والناس كلهم اجتمعوا
جهة سيدنا الحسين والأزهر وحارة الروم والخرنقش ،
وبيت القاضي مبهقش سايعهم والشوارع اللى حواليه . حتى
القاضي خاف وبعث لخورشيد باشا إن عنده أكثر من

أربعين ألف . كلهم عايزين يحاربوه . وان أحسن له ينزل
من القلعة . واديني تركت المشايخ في الأزهر بيأمروا الناس
يستعدوا للحرب ، وكلهم بيتهحضروا معاهم . لأجل يحصروا
الباشا في القلعة ويحاربوه .

المعلم خليل : ربنا يصلح الحال ويروق بالنا .

(يدخل شيخ متوسط السن يبدو عليه النشاط والفتوة)

الشيخ دردير : أهو الشيخ شعراوى كل ليلة يصلى العشا في الحسين ولازم
كان هناك . يحكى اللى حصل بعد كده امبارح .

الشيخ شعراوى : اللى حصل بين الباشا والفلاحين . . ؟

الجميع : (ماعدا الشيخ دردير) أيوه احكى لنا .

الشيخ شعراوى : حصل إن المشايخ والسيد عمر ومعاهم المعلم جرجس الجوهري
اتفقوا على حصار القلعة . والناس كلهم بينزلوا على بركة
الأزبكية بينادقهم ونبايتهم . واللى معندوش يبيع أى حاجة
ويتسلح . كل الخلق من الحسينية والعطوف والأزهر

والصلية والقـرافة يبتجمعوا في بركة الأزبكية وزى
ما يأمرهم المشايخ يعملوا . حتى المشايخ متسلحين .

المعلم مسعود : آمال احنا قاعدين ليه . جرى إيه يامعلم حجاج . . ؟ دانت
كبيرنا وشيخ الخضرية كلهم . شهم وشجاع وراجل .
ساكت ليه . . ؟

(يقوم الشيخ دردير يتبعه المعلم نصر والشيخ شعراوى)

المعلم حجاج : (يفاديه) ياسيدنا الشيخ دردير .

(وينفرد به جانبا وهو يقول له)

: أنا راجيك فى حاجة . فى طريقك بيت المرحوم امبابى .
من غير تسكليف توصل لأولاده الأمانة دى . ويعطيه
شيئا من المال .

الشيخ دردير : الله يكرمك يامعلم حجاج ويوسع عليك . والله أنا كمان
عاوز أشوفهم .

(يخرج الجميع ماعدا المعلم مسعود . فيأخذ المعلم حجاج
إلى داخل المحل ويقول له)

: بتقول ان احنا ساكتين . مين قال لك ان احنا ساكتين ؟

المعلم مسعود : وأنا فين آمال .. ؟ دانا راجلك وبايع روحى وحياتى فى
الراجل اللى اسمه الباشا ... !

المعلم حجاج : انت عايز تشغل معانا . ومستعد تموت ... ؟

المعلم مسعود : وهو فيه أحسن من إن الواحد يموت شهيد . وتنسكتب له
الجنة . ويدافع عن شرفه وشرف بلده .

المعلم حجاج : معاك كام راجل عاوزين يموتوا ... شوف كده وتأكّد
منهم وتعالى لى ليلة السبت ، بعد ثلاث أيام .

الفصل الثاني

[قلعة القاهرة . الوقت بعد الغروب . القلعة
مغلقة الأبواب ومن أبراجها يرى بعض الجنود
الأتراك في أيديهم البنادق . وعلى سورها يظهر عدد
من المدافع موجهة قواها نحو القاهرة .

حول القلعة يقف بعض الحراس المصريين
في جماعات قليلة متباعدة في أيديهم البنادق وهم يترقبون
الطريق إلى القلعة]

أحد الحراس المصريين يحدث زميله : الفرج قرّب ... كلها يومين والباشا
النّحّس خورشيد يسلم ويخرج من القلعة .

الحارس الآخر: ربك كريم . يمكن ولا حتى يومين ، دالجوع والعطش
حيث خلّوه غصب عنه يخرج . قرّب على خمسين يوم دلوقت
مقطوع عنه كل حاجة .

الآخر : كل شدة وتهون . إحنا كان لازم نستحمل السهر والبرد
علشان ما فيش حاجة أبداً تدخل القلعة .

[يشاهد الحراس فتاتين في ثياب الفلاحات تتجهان إلى القلعة وهن يحملن على رأسهن شيئاً . أحد الجنود يرفع بندقيته وهو يصيح محدثاً زميله] :

البنّتين دول معاهم حاجات عايزين يدخلوا بيها القلعة ... !

زميلهم : سيدهم ملكش دعوة بيهم .

الآخر : دول لازم معاهم مية والا حاجة يبيعوها للعساكر بتوع خورشيد جوّة القلعة .

زميله : سيدهم بقولك . إحنا عارفين وصرتين كل حاجة . وهما داخلين القلعة زى ما انت فاهم نزل بندقيتك وانتبه للطريق . فيه حد خارج من باب القلعة .. ؟ بص كده كويس . . !

[يفتح باب القلعة ويقفل بسرعة . ويظهر على بابها جنديان تركيان يسيران ببطء ، يقترب الحراس من الجنديين ويحاول أحدهم أن يصوب عليهما الرصاص ، فيقول له زميله]

: متضرّش . . ! دول من غير سلاح . استنّه لما نشوف عايزين إيه وخارجين ليه .

[يقترب الحراس من الجنديين فيقول هؤلاء لهم ، فى لهجة تركية ، ويبدو فى صوتهما الضعف والخوف]

: مئة . . ! مئة يا مسلمين . . !

[يضحك الحراس المصريون ويقول لهما واحد منهم]

: الجوع والعطش خلاكم تعرفوا إننا مسلمين ؟ ! لما كنتم
تقتلوا فينا وتعزوا النسوان من هدمها وسيغتها وتضربونا
بالكرباج ، مكنناش مسلمين . ؟ !

[يهجم أحد الحراس بأن يضرب جنديا من الأتراك على رأسه
بكمب بندقيته ، فيمنعه زميله ويقول لهما]

: إحنا نديلكم مئة على شرط تقولوا لنا الباشا بتاعكم جوّة ازي
حاله ورجالته .

[يبدو على الجنديين أنها لم يفهما الكلام ، ويزيد خوفهما .
ثم يقولان مرة أخرى ، وهما لا يكادان يستطيعان الوقوف]

: مئة . . . احنا مسلمين . . .

[أحد الحراس يقول لزملائه]

: نموتهم ونخلص عليهم .

: لا . أبدا ، دول لازم يروحوا للمعلم حجاج يسألهم ويصرف
فيهم هو والسيد عمر مكرم ، السيد عمر يعرف يتفاهم معاهم .

يشير لزميله قائلا

آخر

:إنت و بدوى تاخدوهم حالا للمعلم حجاج ورا القلعة . إنت عارف هوّ فین .

[يسير الحارسان وقد أمسكا الجنديين التركيين يقصدان بهما الجهة الخلفية للقلعة : حارس من الحراس يلوح عن بعد بمصباح يحركه حركات خاصة فيراه بقية الحراس] .

أحد الحراس : واحد من إخواننا فوق الجبل بيدى لنا إشارة ، لازم عنده حاجة بيدبّغ عنها .

زميله : أنا رايح له بسرعة أشوف الحكاية .

[بعد أن يسير خطوات قليلة يقابله أحد زملائه مسرعاً ، ثم يقبل الإثنين على بقية الحراس حيث يقول القادم]

: جماعة كبيرة من الرجال والجمال جيّة من بعيد علشان تدخل القلعة . جالنا خبر دلوقت إنها فى الطريق ، الجبال أكثر من ستين جمل محملة ذخيرة وأكل وميّة .

أحد الحراس للرسول القادم : إرجع إنت حالا لزملائك ، وانت يا حسفين تروح مع شحاته للمعلم حجاج بسرعة تبلغوه الخبر .

[تسمع حركة وأصوات قادمة من بعيد ، يتجهل حسنين
وزميله في السير قليلاً ثم يقولان]

: دا صوت المعلم حجاج يا جماعة . ثم يستقبل الجميع القادمين.
ويسارعون بإبلاغهم الخبر .

[المعلم حجاج ينظّم رجاله بسرعة ويفرقهم جماعات ويأمر كل
جماعة بالتوجه إلى مكان معين حول القلعة ويقول للجميع]

: الجبال دى مستحيل تدخل القلعة . دى من نصيبنا إحنا ،
إذا دخل منها جمل واحد راح تعبنا كله وانتصر خورشيد
الظالم علينا . توكلّوا على الله يارجاله . أنا مع جماعتى على
رأس الجبل . ثم يقول : الجماعة اللى سايقين الجبال راح
يفرقوا أنفسهم ، كل جماعة منكم عليها تمسك منهم اللى يحاول
يوصل للقلعة من طريقها . ولأزم تمسكها : الذخيرة وكل
حاجة توصل لنا سليمة . . . توكلّنا على الله .

[تتفرق الجماعات كل فى طريق . ويسرع المعلم حجاج إلى رأس
الجبل . ويبقى بعض الحراس لمراقبة الطريق]

الفصل الثالث

[شارع من شوارع القاهرة الضيقة ، والوقت
ليلاً ، يسير جماعة من الناس يتقدمهم بنحو خمسة
أمتار شخص آخر]

أحد الجماعة : مين اللي ماشى قدّام دا في نور الفانوس . . ؟ يا معلم شمعة
يا ترى هوّه . . يا معلم شمعة .

[يلتفت الشخص المتقدم ثم يجيب . أيو الله . ثم يقف
حتى يلحق به الآخرون]

الشيخ دردير : إيه اللي جابك هنا . مصّلّتش ليه في الرفاعي يا معلم شمعة .
زىّ عادتك . . ؟

المعلم شمعة : والله هفّ علىّ أزور السيدة عائشة . واصلّى فيها العِشا
والتراويح . والحمد لله صلّيت .

الشيخ دردير : طيب ياريت تقضى السهرة معانا وتستريح شوية . واهم
ولادنا واخواتنا معانا نسهر سوا .

[يتقدم للسلام على المعلم شمعة رفقاء الشيخ دردير وهم :
المعلم خليل ، والشيخ شعراوى . والمعلم عصفور . والحاج شلبي
السكاكيني]

المعلم شمعة : والله قعدة حلوة على بركة الله .

[يصل الجميع إلى منزل الشيخ دردير ثم يدخلون ، منظره
إلى جانب الباب الخارجى فيها أربع كنسبات كل واحدة عليها
شلتة كبيرة ، وواحدة تزيد عليها فروة يجلس عليها الشيخ ،
ويجلس الآخرون]

المعلم خليل : داحنا بنختنا عال . اللى شُفنا سيدنا الشيخ دردير الليلة
وحتحصل لنا البركة

الجميع : أبوه الله صحيح .
الشيخ دردير : بارك الله فيكم .

المعلم شمعة : يا سيدنا الشيخ دانتا بركتنا كلنا ، ربنا ما يحرمنا منك .
هو لولا أسيادنا العلماء . . . كانت بقت الناس لها قيمة .

المعلم مسعود : صحيح ربنا بينظر للناس ببركة العلم والمشايخ . لكن الناس
يظهر إن مبقأهاش قيمة ، دلوقت . وأسيادنا المشايخ مش
عارف راضيين عن كده والآ إليه .

الشيخ شعراوى: والله أظن محدّث يرضى عن كده أبدأ، هتلازم بيهمو لهم ترتيب . علشان هما اللى جابو الراجل ده .

(يسمع صوت من الخارج قريب من النافذة)

يا معلم شمعة . . . عامر يا معلم شمعة . يظهر إن عندك ضيوف . دايمًا عامر .

المعلم شمعة : أيوه عندي سيدنا الشيخ دردير وبعض الإخوان . الدنيا صيف وسهرة رمضان حلوه .

(يبعد صاحب الصوت . ثم يقطع السكون صوت الشيخ دردير يقول : [مين دا يا معلم

المعلم شمعة : دا الواد البصّاص عوض . حاكم الباشا محمد على عامل على كل شارع بصاص . الاسم انه يحرس الناس . وهو يوصل أخبار للسكّنة خُدا . والله ياجماعة مبقيناش عارفين نعيش في البلد . ياريت نسيبها زى ماسابها المعلم حجاج . نفد بجلده .
المعلم عصفور : والله لو كان فيه عدل في البلد . كان المعلم حجاج بقى كبير

ومستيط في أيام الباشا ده . دا هوّا اللي حارب الباشا
خورشيد ونزله من القلعة .

الشيخ شعراوى: صحيح والله يا جماعة . لولا حجاج ما كانش حد قدر ينزل
الباشا الظالم ده من القلعة . دانا شفته بعيني بيدّيح فى عسكر
الباشا زى الغنم . كان زى مَنتو عارفين . شجاع وجسمه
جامد كله عافية وقوة .

المعلم شمة : لولا المعلم حجاج كان خطنا ده اتهدل . قريب من القلعة
والعساكر طالعين نازلين بيئذوا الناس ويقتلوهم . لـسكن هو
كان واقف لهم . ومرّه سمع عن جماعة حاصروهم العساكر
فى حى المظفر فطار لهم برّجالاته . وفضل يحارب لغاية ما قتل
اكثر من نصّهم ، وهربوا بقية العساكر وطلع بتوع المظفر
من الحصار .

المعلم عصفور : دانا حاربت معاه . كان المعلم مسعود ، الله يرحمه ، صاحبي
بالروح وزى أخويا . وقال لى ليلة تحب تموت شهيد ..؟ ولما
فهمت منه الحكاية . قلت له أنا معاك زى متقول . ورحت
معاه أنا وجدعان كتير للمعلم حجاج بالليل ، وكان واقف

مع رجالته يراقب القلعة من جهة الحبل . كان خورشيد باشا
بقي له أكثر من شهرين محصور فيها ، وكان سيدنا السيد
عمر مكرم مكلف المعلم حجاج بأنه يحطّ عينه وحسّه على
القلعة . علشان مافيش مية ولا ذخيرة ولا أكل يطلع للباشا .
وفي يوم من الأيام . شفنا ناس كثير وجمال من بعيد
طالعة القلعة . فقام المعلم حجاج واحنا كلنا معاه وقسمنا
أقسام وقطعنا الطريق على اللطالعين وحاربناهم وقتلنا منهم
كثير . والباقي هربوا وتركوا ستين جمل محملين ذخيرة . لما
سمع محمد على الحكاية دى . وسمع على حجاج وشجاعته
بعث له جماعة من عساكره يحاربوا تحت رياسته . وفي واقعة
يوم الجمال دى انتقل المسلم مسعود لرحمة الله شهيد ، بعدما
حارب حرب رجّاله .

المعلم خليل : والله المعلم مسعود رجل بيحبّه ربنا ، طلب بلسانه الشهادة
وربنا نولّاه ، هنيّاله الجنة

الشيخ دردير : أيو الله يا ولادنا . مكانش حد فاكر كده أبدا . مين كان
يجبى فى باله إن محمد على باشا لما يتولّى . يعمل كده فى الناس
حتى المعلم حجاج اللي ساعده مساعدة يعلم بها الناس كلهم...!

المعلم شمة : دى حتى بفته زينب والبنت اللى كان متبنيها زى ما انتو
عارفين كان بيدخلهم القلعة على إيهم بيبيعوا لبن وميه لعسا كر
خورشيد وهما فى الحقيقة بيعستوا عليه ويوصلوا أخباره
لأبوه المعلم حجاج . ومرة واحد من عسا كر خورشيد
كسر دارع البنت نفيسة لأنه كان بيعا كسها فضر بته قلم .

المعلم عصفور : أنا شفت بعينى ، يوم ماجه الفرمان لمحمد على يكون والى
مصر . المعلم حجاج ماشى قدام الموكب ، موكب هایل ،
وهو رافع سيفه وجنبه المعلم شمة ده . وفضلوا ماشين قدام
الرفقة لما دخلو بيها بيت محمد على فى الأزبكية . والأدهى
خورشيد باشا كانت مدافعه وقتها عماله تضرب على البلد وعلى
الناس . وكان المعلم حجاج والمعلم شمة ماشين زى الأسود .
المعلم شمة كمان شيخ الجزارين قد الدنيا .

المعلم شمة : اللى ربنا قدرنا عليه عملناه ، والمعلم حجاج كان بطل صحيح
ولما شاف الباشا محمد على بيزيد ظلمه يوم بعد يوم ساب له
البلد ، وبرضه خاف على نفسه .

[ثم يتوجه بالكلام للشيخ دردير]

إلا سيدنا الشيخ . إيه رأى أسيادنا العلماء فى الباشا ده وأعماله .

الحاج شلبي السكاكيني: يا جماعة من خاف سلم .
لامؤاخذه ياميدنا الشيخ ، الحيطان لها ودان :

الشيخ شعراوى: ودان إيه وسنان إيه يا حاج شلبي . دا الباشاوات دكهم كان
حالهم أرحم . مشفناش حد زى ده ، على الأقل كانوا باشاوات
كبار صحيح . ولهم مقام . لكن ده حنة شاويش محدش عارف
جى منين ، ضحكك على الناس وقال لهم حالكم بالعدل والشرع
وادحنا شايفين ، والله حرام علينا لو نسكت على كده .
مفيش كام سنة استولى يعمل كده فى الناس !...
[يسمع من الخارج صوت البصاص وهو يقول]

يامعلم شمة يظهر إن السهرة حليت ، والضيوف أحباب ،
دافيه خبر كويس حقوله لكم . المعلم حجاج رجع بيته النهارده .
المعلم شمة : ماتيجى ياخى تشرب حاجة ساقعة . وتحكى لنا . والله
خبر كويس .

الحاج شلبي السكاكيني : (بصوت مرتفع) والله الباشا بتاعنا ده قلبه
طيب وكله خير ، لازم عفا عن حجاج .
(م ١٠ بطولات عربية)

المعلم شمة : يامى عوض سيدنا الشيخ دردير بيقولك تعالى جوتّه .

عوض البصااص : لا . . . معلمش . سلام عايكم ياسيدنا الشيخ . افتهحوالى الشباك بس وأنا اتكلم معاكم .

(المعلم شمة : يفتح له الشباك) .

عوض : صحيح النهاردة المعلم حجاج رجع بيته . المشايخ والسيد عمر مكرم كآموا فيه الباشا وقالوا له الراجل كبر وتعب وما يقاش منه خوف . والباشا قال لهم دا راجل ساعدنا كتير وأنا بحبه . وأنا بتهعجب بيسيب البلد ليه ويغيب الغيبة الطويلة دى ، والمشايخ بعتموا له بجى . واهو دلوقت فى بيته . ماهو مالقيش فايده من العند ، بيقولوا راح للألفى . أهو مات الألفى . وصفت الدنيا لمحمد على .

(يسمع صوت مناد من بعيد . فيترك عوض الشباك ويسير فى الطريق) .

الشيخ دردير : أنا عايز يا جماعة أزور المعلم حجاج .

المعلم عصفور : والله ياريت نروح نزوره كلنا ونهنتيه .

(يقترب صوت المنادى حتى يسمعه الجميع وهو يقول)

ٖ يكون فى علمكم يا أهل البلد . الحاضر يعلم الغائب . يا أهل
السيدة عائشة ، والرفاعى والقلعة . إن حضرة الباشا محمد على
عفا عن المعلم حجاج وأعطاه الأمان يرجع بيته ويقعد فى
دكانه زى ما كان . وبقي شيخ الخضرية زى زمان .
الحاضر يعلم الغائب . حضرة الباشا أعطى المعلم حجاج الأمان
يرجع بيته ويقعد فى دكان شيخ الخضرية زى ما كان) .

الشيخ شعراوى : الحمد لله . المعلم حجاج بعد ييجى سبع سنين يرجع بيته
وعزوته ، ويرمضن بين عياله .. !

المعلم شمة : دى زيارة سيدنا الشيخ دردير كلامها خير وبركة وسرور .

الشيخ دردير : الله يبارك فيك يا معلم شمة .

المعلم خليل : بعد إذن سيدنا الشيخ دردير . ياللا بيانا كلنا نرور المعلم
حجاج ونشوفه ونهنيه .

(يقف الشيخ دردير ثم يخرج ، وخلفه الجميع)
وهو يقول

ٖ حصلت البركة يا جماعة . حصلت البركة يا معلم شمة .

الفصل الرابع

(الشيخ دردير والشيخ شعراوى يسيران وقت
العصر فيمران على محل جزارة المعلم شمعة . وهو
يقفاه ويتهياً للإصراف . وعندما يمران به لا يلتفتان
له . فيسرع باللاحاق بها ثم يمسك بيد الشيخ شعراوى
وهو يقول) :

المعلم شمعة : يعنى ما فيش سلام عليكم ولا حاجة . . ؟
الشيخ دردير : لا مؤاخذه يا معلم شمعة . والله يا بنى أنا عنيت مش شايف بيها
وفكرى تايه .

المعلم شمعة : خلاص كل سنة وسيدنا الشيخ بخير وعافية . كلها عشرة
اتناشر يوم ويخلص رمضان . هو السنة دى صعب صحیح
فى الحر .

الشيخ دردير : والله يا معلم شمعة مش من رمضان ولا من الصيام . دا على
قدر المشقة يكون الثواب ، هو انت معرفتش اللى حصل
للمعلم حجاج .

المعلم شمعة : لا والله . خير ان شاء الله . عَيَّان والا إيه . . ؟

المعلم شعراوى : بصوت منخفض . . . ياريت . . ما قتله الظالم . . !

المعلم شمعة : لا حول ولا قوة إلا بالله (موجهاً كلامه للشيخ دردير) .
صحيح ياسيدنا الشيخ الكلام ده . . . ؟

(يقترب الجميع من بيت المعلم شمعة . وقبل أن يصلوا إليه يقول
الشيخ دردير) .

الشيخ دردير : يا معلم شمعة . أنا عاوز أستريح عندك شوية .

المعلم شمعة : يا ألف أهلا وسهلا ونفطر سوا .

(يدخل الثلاثة منزل المعلم شمعة . حيث يجلسون فى منظره
مظلمة مغلقة النوافذ)

المعلم شمعة : أظن الضامة والرطوبة كده أحسن للحر . والا تأمر ياسيدنا
الشيخ أفتح الشبابيك . . ؟

الشيخ دردير : لأ كده أحسن ، خليم .

المعلم شمعة : إيه يا شيخ شعراوى الحكاية الفظيعة دى . . ؟

الشيخ شعراوى : دا سيدنا الشيخ دردير هو الى سمع بنفسه .

الشيخ دردير : والله أنا لى عادة فى بعض ليالى رمضان أصلى الفجر فى
سيدنا الحسين .

الشيخ دردير :
والعلم شمه :
رضى الله عنه

الشيخ دردير : والليلة اللي فاتت حببت أصلى فيه . فقلت لابنى عبدالرحمن
من قبل السحور يحضر لى الحمار بتاعى . وييجى معاياه نصلى
الفجر سوا . وصلينا والحمد لله وقبل ما نخرج من المقام
قرب منى واجد من أولادنا وقال لى إنه وهو جى من
بيتهم فى الجمالية بعد السحور . شاف عند السبيل اللى فى
الشارع جماعة من العسكر مكتفين واحد وبيعلقوه بحبل
من رقبتة على السبيل . فهو برضه خاف ومارضيش يقف
كثير . وبعدين قبل ما يبعد سمع واحد من العسكر
بيقول :

خلاص ... الرجل خلص . وبعدين جرى واحد بسرعة جهة

واحد راكب فرس وهو يقول : — خلاص يا حضرة
الأغا . حجاج خلصنا منه .

فأنا في الحق شكيت . يا ترى المعلم حجاج .. ؟ محنا عارفين
محمد علي خاين وغدار . رجعت قعدت في المقام قریت جزئين
قرآن . وقلت يا عبد الرحمن قوم بروح بقا . وأنا لسه بامشى
أول خطوة عند باب سيدنا الحسين . والناس داخله للصلا
والزيارة والدعا . سمعنا المنادى بيقول :

« يا أهل البلد يكون في علمكم . إن حضرة الباشا شنق
الليثة حجاج الحضري على سبيل الجمالية . وأمر يفضل
متعلق هناك يوم بليلة . علشان غيره يعتبر . دا جزاء اللي
يخالف حضرة الباشا . ويعصى على أمره » .
(ثم يقول بعد لحظة صمت ، بصوت متهدج) .

الشيخ دردير : الله يرحمك يا معلم حجاج . لك نعيم الجنة .

« شعراى : ربنا ينزل علينا رحمته . ويلطف بعباده . والله دا هو اللي

يستاهل الشنق .

(يقف الشيخ دردير ويتبعه الشيخ شعراوى متهيئين للخروج
ثم يقف المعلم شمة متثاقلا وهو يقول والدموع تسكاد
تخفق صوته) .

المعلم شمة : يشنقوه كده ظلم ياربى !.. وفى شهر رمضان !.. ربنا
ينتقم من الظالم .

[شخصية كل من المعلم حجاج والمعلم شمة حقيقية . وجوهر
الحوادث فى هذه المسرحية ثابت تاريخياً . وكان قتل حجاج
بأمر محمد على ، ليلة ١٧ رمضان سنة ١٢٣٦ (أغسطس ١٨١٢) .]

مجاهد من الغرب

[إلى أبطال الجزائر المجاهدين ، الذين هم في
الحياة المعاصرة . المثل الأول للشرف والتضحية
والسكفاح الوطنية]

كان الأمير محمد السكيلاي ، أو السيد محمد المهدي ، يقيم في قصره
في مدينة درنة بطرابلس الغرب . وكان « الغرب » هذا ، أو بلاد المغرب
وطناً عربياً إسلامياً واحداً لا تفرق بينه حدود . ولا تفصل بين أرضه
حواجز أو سدود . كانت طرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، وطناً
عربياً إسلامياً يسير في أرضه السائر من حدود مصر إلى أن يلتقي بأموج
المحيط ، فيستبدل أهلاً بأهل ، وإخواناً بإخوان . وطنهم جميعاً : « العربية »
ودينهم : « الإسلام » .

وكانت حياة الأمير السكيلاي هذا هيئنة ميسرة رخيصة كريمة ؛ يقيم
صلاته ، ويرعى شؤون أتباعه ومعتقديه ؛ متمتعاً بمكانته ومنزلته من الجاه
والحجة والسيادة والتكريم ، كما يسكون الأمير والسيد والإمام . وظل

يعيش بين قومه متممًا بمكان الصدارة والإمارة وكرامة العلماء والسادة ، والشرفاء ، ومحبة أصحاب الخلق والدين والمروءة والبر ؛ حتى ذاع في بلاد المغرب نباؤه أزعج أهلها وقض مضاجعهم ، وأثار غضب الأمير وحرك سخطه . وغيظه ونحوته ؛ فقد علم أهل المغرب أن جيش الفرنسيين قد طرق مدينة الإسكندرية ، وأن أهلها حاربوهم ما استطاعوا ، وبذلوا من دماءهم وأرواحهم واسترخصوها قبل أن يهزموا ؛ ولكن جيش نابليون ، أو بونا برته ، غلبهم ودخل المدينة فأقام فيها واستولى على مديرية البحيرة وهو في طريقه إلى القاهرة ، وأن المصريين جميعاً يبادرون لنصرتهم والدفاع عن حرمة وطنهم وكرامة أرضهم وشرفها وقديسياتها .

ولم يستطع الأمير محمد أن يهدأ بعد هذا الذي سمع ، فقد كانت نفسه تتميز من الألم والسخط والثورة ، ورأى الناس أميرهم وإمامهم يجمع أمره ، ويجمع ما استطاع أن يحمل من أمواله ، ويقوم بينهم داعياً للجهاد والنصرة والحرب ، وكان خطيباً فصيحاً لسنّاً ؛ استطاع في وقت قصير أن يجمع حوله عواطف قومه وقلوبهم ، وأن يسلّموا إليه قيادتهم ليسير بهم إلى مصر لحرب هؤلاء الفرنسيين .

ترك الأمير قصره كما ترك هؤلاء المجاهدون بيوتهم وأولادهم متوجهين .

صوب الشرق ؛ صوب مصر المجاهدة ، رغم ما بينها وبينهم من المشقات والأهوال والمعاناة .

قطعوا في مسيرهم هذا ، الليالي والأيام ، يجذّون في السير ويصبرون على هجير الصحراء وحرّها وعطشها ليبادروا لنصرة إخوانهم . وظلوا على حالهم هذه الليالي والأيام الطوال ، وأميرهم كلما لقي قوماً دعاهم إلى الجهاد والمشاركة في الحرب فيلبّون ويبادرون .

ثم نزل الأمير وقومُه « واحة سيوة » بعد المشقة والجهد . وهناك رأوا أن يستريحوا فيها أياماً بعد ما لقوا من مشقة هذا السير الطويل .

وفي هذه الواحة التقت بهم جماعة كبيرة من الناس تعرّف الأمير أمرهم ، فعلم أنهم قافلة من حجاج أهل المغرب ، فاستولى على قلوبهم بفصاحته وقوة شخصيته وصدق إيمانه وإخلاص يقينه ، حتى أسلموا إليه أمرهم ، وقبلوا — مسرورين فرحين — أن يسبّروا معه إلى مصر ، وأن يشاركوه شرف ما يسعى إليه من الجهاد ؛ وكان عددهم أربعمائة من الرجال الأشداء الأقوياء الشجعان .

أصبح للأمير بهذه القافلة وبين سكان معه من قبل جيش كبير ؛ سار به مسرعاً حتى نزل مدينة دمنهور . وكان الفرنسيون استولوا عليها وتركوا فيها حامية ترهب أهلها ونخيفهم وتستبدّ فيهم ، وترقب الطريق إليها ومنها ؛

حتى لا يتصل المجاهدون من أهل الاسكندرية والبحيرة بإخوانهم
في القاهرة .

وكان أهل المدينة وماجاورها من البلاد والقرى يهاجمون الحامية كلما
وجدوا لذلك سبيلاً ، ويقتلون أو يأسرون من استطاعوا أن يقتلوا ويأسروا
من جنودها . ولكن الناس أصبحوا يوماً فلم يجدوا لهذه الحامية أثراً ، ولم
يبق في مكانها سلاح ولا رجل ؛ بل وجدوا في مكانها آثار معركة وحطامها
وأشلاء قتلاها . وعرف القوم بعد قليل أن مجاهداً من الغرب اسمه الأمير
محمد قدم لنصرتهم ، وأنه هو وجنوده هم الذين هاجموا الحامية فأبادوها ،
وقتلوا جميع رجالها فلم يبق منهم أحد ، واستولوا على مدافعهم وسلاحهم .

* * *

واشتهر اسم الأمير وجيشه بعد هذا الهجوم ، وتطوع للحرب معه
كثيرون من الناس ، مصريين وغير مصريين ؛ حتى بلغ جيشه أربعة
آلاف . ويقول بعض المؤرخين سبعة آلاف .

ورأى الفرنسيون أن لا بد لهم من القضاء على هذا الخطر الجديد قبل
أن يستفحل أمره ويشتد ساعده أكثر من ذلك . فساقوا إليه جيشاً كبيراً
لم يستطع أن يهزمه ، وانتصر عليه جيش الأمير المجاهد ، ولكن هذا

النصر الذي أحرزه جيش المجاهدين كان عالى الثمن . فقد فقد منه عدد كبير ، كان أكثره من الفلاحين الذين لا يسكادون يحملون سلاحاً ، بل كانوا يحاربون بفؤوسهم وعصيهم .

فلما باغ أمر المهدي هذا المبالغ من الخطر . قام لحربه قائدان من أبرع القواد الفرنسيين وأعظمهم شجاعة وأبرعهم دراية بفنون القتال والحرب ، وكلاهما يقود جيشاً عظيماً . وكان جيش المهدي قد بلغ عدده خمسة عشر ألفاً من المشاة ، وأربعة آلاف من الفرسان .

وجرت بين الجيشين معركة عنيفة طاحنة ، أبدى فيها الأمير وجيشه من أهل المغرب ومن المصريين أعظم ضروب الشجاعة والبسالة والفداء والصبر . ومع أنهم فقدوا — كما يقول المؤرخون — ألفين من الرجال ، فقد تغلبوا على الفرنسيين حتى ردّوهم وأجلوهم عن مواقعهم وساقوهم أمامهم مهزومين .

ولسكن الفرنسيين أسرعوا فجلبوا كثيراً من السلاح والرجال ، وجرت بينهم وبين الأمير وجيشه معارك دامية ، كانت الغلبة فيها على جيش المجاهدين والأمير .

ثم دخل الفرنسيون مرة أخرى مدينة دمنهور ففعلوا بها وبأهلها أشد .

الأفاعيل وأفحشها . قتلوا رجالها ونساءها وأطفالها ، ثم أحرقوها حتى بدت أطلالاً وحجارة سوداً ، وفرضوا على أهلها — بعد ذلك — المغارم الثقيلة الفادحة .

وبذل الفرنسيون غاية جهدهم ليصلوا إلى هذا الأمير المجاهد فيأسروه أو يقتلوه ، ولكنه غاب عنهم في بطن الصحراء فلم يدركوه . وكان ، قبل أن يهزم ، قد طهر مناطق فسيحة — من الرحمانية إلى رشيد — من الفرنسيين .

واستطاع الأمير محمد أن يصل إلى القاهرة . ولم يركن فيها إلى الراحة والأمن بعد هذا الكفاح الرائع الذي قام به ، بل أخذ يبذل كل ما يملك من جهد وموهبة وعزم ، ليشارك المصريين جهادهم وحربهم مرة أخرى . ونجد فيما روى المؤرخون ، وبخاصة الجبرتي ، من تفصيل وقائع الثورة التي قام بها — للمرة الثانية — أهل القاهرة ضد الفرنسيين . نجد فيما رواه المؤرخون ذكراً لهذا الأمير المجاهد ، ونجد له نصيباً وجهداً في الكفاح .

* * *

وقدالتقى هذا الأمير بقائد من قواد الحملة الإنجليزية بعد ذلك على مصر لمشاركة العثمانيين في حرب نابليون وجيشه .

لقى القائدُ الإنجليزي الأميرَ المجاهد فقال إنه التقى بالحملة الإنجليزية عند الرحمانية ، ثم سار معها حتى بلغ القاهرة ودخلها^(١) .
ثم وصف القائد الإنجليزي الأميرَ المجاهد فقال :

« لم يكن هذا الرجل شخصاً عادياً ، بل كان أميراً من أمراء المغرب : اسمه : مولاي محمد ، مهيب الطلعة ، نبيل النفس ، أنيق الثياب . وكان يركب جواداً عربياً من أجمل الجياد ، ويضع على رأسه عمامة ناصعة البياض . ويلبس عباءة في نصاعة بياضها أيضاً ، موشاة بالذهب ، تتدلى منها على كتفيه عقود من الحرير الأحمر^(٢) » .

ويقول المؤرخون الفرنسيون ورجال الحملة الفرنسية إن الأمير المجاهد قتل في حربهم ، ولكن شهادة الكولونيل الإنجليزي روبرت ولسون هذا بأنه التقى بالأمير بعد انتهاء الحرب ، ووصفه له ، قرينة — إن لم تكن دليلاً — على عدم صدق ذلك ، وإنكار لما زعم رجال الحملة الفرنسية من أنهم طاردوه حتى الصحراء ، ثم قتلوه على حدودها .
وكأنما كان ذلك أمنية لهم تمنّوها . فلم يبالوها ، فادعوها أو تخيلوها .

(١) ذكر ذلك الكولونيل « روبرت توماس ولسون » من رجال الحملة الإنجليزية .

(٢) كتاب « فتح مصر الحديث » : للرحوم الأستاذ أحمد حافظ عوض ،

وبعد فترة غير بعيدة من هذا الزمن ، قام رجالان آخران بقسط غير مجحود في الجهاد والكفاح أيضاً لإخراج الإنجليز من مصر : هما شقيقان كانا من أكبر تجار القاهرة وأوسعهم ثروة ؛ اسمهما أحمد وسلامة النجارى ، وهما غير مصريين وطناً . واعلمهما - كما تدل بعض الدلائل - من أبناء المغرب أيضاً .

سمع هذان الأخوان نبأ قدوم الحملة الإنجليزية الغادرة إلى مصر ، في سنة ١٨٠٧ م وسمعا عن ذلك الموقف الرائع المشرف الذى وقفته أمامها مدينة رشيد ، فأرادا أن يسهما في هذا الشرف ، وأن يعينا المجاهدين في حربهم . فجمع الأخوان مائة من البدو والمغاربة ، وتسكفلا بتسليحهم ، والإنفاق عليهم في جميع حاجاتهم .

وتم للأخوين تجهيز هذه الفرقة وتسليحها ، ثم سارا معها إلى رشيد ، حيث اشترك جنودها في الحرب مع أهل المدينة وفي مدافعة الإنجليز عنها . وكان الأخوان يشاركان بذاتهم في الحرب أيضاً ، وتطوعا فوق ذلك بالإنفاق على المحتاجين من الحار بين ؛ غير جيشهما الصغير ،

ولما تم النصر لأهل رشيد ، وهزم الإنجليز فيها وفي غيرها ، فرّق هذان الأخوان جميع ما غنما في الحرب ، وفرّقا جميع ما معهما من مال . فرّقا هذا

وذاك على من خرج لمطاردة الإنجليز ، وجعله جائزة لكل من يتعقبهم
في فرارهم بعد الهزيمة .

* * *

وإني وأنا أكتب حديث هذا الأمير المجاهد وهذين الأخوين
المجاهدين أيضاً ، أجد في خاطري ذكريات ، وفي قاي أحاسيس .

ذكريات خاطري أن هذا المجاهد الذي قديم من الغرب كانت —
وما تزال — بلاده وبلادي وطناً واحداً في الشعور والعاطفة والإحساس .
كما كانت وما تزال البلاد العربية كلها ؛ وأن رائداً آخر من رواد الثقافة
والمعرفة ، هو ابن خلدون ، قديم من بلاد الغرب هذه إلى مصر ، واستقر
فيها شطراً طويلاً من عمره حتى مات ؛ فلم يشعر أنه غادر وطنه ، ولا
فارق أهله .

وكذلك قدم من أقصى هذه البلاد رائداً آخر من رواد الثقافة والمعرفة
هو ابن بطوطة فشهد هذه البلاد ، ووصفها ، وأقام فيها ؛ فلم يشعر أنه
غادر وطنه ، ولا فارق أهله .

وكذلك فعل كثيرون غيرها من العلماء والمتصوفة والتجار والزائرين
(م ١١ — بطولات عربية)

والحجّاج وطلبة العلم في الأزهر ؛ وأنّ آلافاً من القوافل ، وآلافاً من الناس
في مئاتٍ من السنين ، سلكوا هذا الطريق الذي سلكه هذا الأمير
المجاهد إلى مصر ، وإلى بيت الله الحرام ، فلم تمنعهم حدود ، ولم تردّهم
قيود ، ولم تقف في طريقهم سدود ؛ مهما طوّروا من البلاد ، وقطعوا من الآماد .

* * *

وإحساس قايي ، هو هذا الذي يحسّه كل عربي وكل منصفٍ في العالم
كله ، نحو هذا الوطن المسكّافح المجاهد الصابر من بلاد الغرب : الجزائر .

وقد ترجّمنا نحن في هذا الوطن العربي ، هذا الإحساسَ إلى مشاركةٍ
وعمل ؛ فعطف الشعب كله وأعان وبذل . وسُيِّعِين ويبذل ما دام هذا
الوطن في حاجةٍ إلى بذل ، وحتى تتحقّق له أكرم الغايات .

* * *

وعندما نذكر قصة هذا المجاهد من الغرب ، وهذين الشقيقتين أيضاً ،
فنحن نحسُّ أننا نردُّ يداً تقدّمت ، ونقضي ديناً سلف . كما نحسُّ أننا نبني

للحاضر : ونشيد لمستقبل هذه الأمة العربية التي يوحد بينها من قديم
الزمن شعور واحد ، تؤكد أحداث التاريخ ، وتوثقه قلوب الناس وعواطفهم
كما توثقه مصالحهم ، ونشيد بنياناً لعلنا نراه ، أو يراه أبنائنا وأحفادنا :
هو بنيان هذا الوطن العربي الموحد ؛ بنياناً يقوم على واقع الأمر وحقيقته
وأساسه ، كما هو قائم على الشائج والإحساس والشعور والضمائر والعواطف .

الفضل ما سهرت به الأعداء

كانت ثورات أهل القاهرة القويّة العارمة المتلاحقة سبباً من أكبر الأسباب لخروج نابليون وجنوده من مصر ، رغم ما أوقفوا بأهلها من المظالم والمغارم ، وكانت ثورات أهل المدن والقرى والريف أيضاً من أكبر الأسباب لهذا الذى أكره عليه الفرنسيون صاغرين . كما كانت هذه الثورات وتلك من أعظم ما لقيَ الفرنسيون من الشدّة والحنة في بلادنا وفي البلاد التى أبتليت باحتلالهم .

وهناك شهادة رجل محايد ، بل هو صاحب هوى وميل للفرنسيين ، نعرف منها إلى أى حدّ كانت هذه الثورات سبباً من أسباب الشقاء الذى لقيته جنود فرنسا الباغية . وكيف كان وقع هذه الثورات ، بل الحروب المتّصلة ، في نفوس هؤلاء الجنود .

هذا الرجل المحايّد ، بل العدوّ المخاصم ، هو : « نقولا الترك »^(١) أو « المعلم نقولا » . وقد كان نقولا هذا ، كما نرى في ترجمته وسيرته ، مع الفرنسيين بقلبه وهواه وعاطفته ، فهو يباليغ بأسلوبه المسيّج في الإشادة

(١) نقولا الترك هذا ، أو نقولا الأرمنى ، يؤخذ من الترجمة الفرنسية لكتابه ومن مصادر أخرى ، أنه ابن يوسف الترك ، ولد في سنة ١٧٦٣ في دير القمر بלבّنان . وأصل أسرته من بونابى القسطنطينية ، ولذلك سمّى « بالترك » ، أى التركى . هاجرت أسرته إلى جبل الدروز واعتنقت المذهب الكاثوليكي . وكان المعلم نقولا يشتغل بخدمة الأمير بشير الشهابى الكبير . فأرسله الأمير إلى مصر قبيل الحملة الفرنسية عليها ليطلّعه على أخبارها . ويقول بعض المؤرخين . إنه أقام في دمياط ثلاث سنين — المدة التى أقامها الفرنسيون في مصر — وكان يرسل الأمير بشيرا بأخبار نابليون وحماته . لأن الأمير كان يتوقع غزو نابليون الشام . فلما خرج الفرنسيون من مصر عاد نقولا إلى دير القمر ، وكفّ بصره في آخر عمره . فكان يعمل على بذته ما يريد أن يكتب . ومات في سنة ١٨٢٨ .

وقد وضم نقولا كتابه : « ذكر تملك جمهور فرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية » وطبع في دار الطباعة السلطانية بباريس سنة ١٨٣٩ وطبعت معه ترجمته الفرنسية بعنوان « تاريخ الحملة الفرنسية في مصر » ترجمه مسيو دييجرانج ليذيه . ثم طبعه مرة أخرى المعهد الفرنسى للآثار الشرقية في القاهرة في سنة ١٩٥٠ بتعليقات للمسيو جاستون فييت . وهذه الطبعة تزيد عن الأولى ، وتنتهى حوادثها إلى أغسطس سنة ١٨٠٤ وتتحدث عن مقدمات عهد محمد على .

ونقولا الترك واضح الميل بل التعصب للفرنسيين . له في كتابه شعر مضحك في مدح نابليون والإشادة بكفائته وشجاعته ، وشعر في رثاء الجنرال كليبر . لذلك تجد لشهادته قيمة كبيرة ، فيما يتعلق بمقاومة المصريين لنابليون وحماته ، واستبسالهم في هذه المقاومة . لأنها شهادة ليس من الهين عليه الاعتراف بها .

ولقولا الترك ديوان شعر باللغة العربية طبعته حكومة الجمهورية اللبنانية في سنة ١٩٤٩ في مجموعة : « نصوص ووثائق تاريخية » وأشرف على طبعه الأستاذ فؤاد أفرام البستاني .

بعبقرية نابليون ونبوغه ، وفي شجاعة الفرنسيين ، ولكن هذه العاطفة لم تحل بينه وبين أن يذكر ما قام به شعب مصر من الكفاح المجيد المشرف في مقاومة نابليون ، وما لقي هذا الشعب من المعن القاسية ، من الجنود الفرنسيين ، ثم ما لقيه هؤلاء الجنود ، وقوادهم ، من مقاومة وعناء ، جعل أبقاءهم في مصر أمراً مستحيلاً ، وهو يشهد هذه الشهادة لشعب مصر مصحوبةً بكثير من المرارة والحسرة ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

* * *

يقول نقول إن مقاومة الشعب المصري للفرنسيين كانت تشمل البلاد كلها ، وقد « تظاهر المصريون ، على الطائفة الفرنسية ، وقامت الأربع أقاليم المصرية ، القبلية . والبحرية ، والغربية ، والشرقية ، وكان في كل وقت يقع الخصاص بينهم وبين الجنرالالية . - أي الفرنسيين - من الأربع الجهات المصرية ، وتحرق البلاد ، وتهلك العباد » .

وذكر أن أهل المنصورة قاموا على الحامية الفرنسية في يوم خميس - وكان السوق الأسبوعي يقوم فيها في ذلك اليوم - فخاربوها حتى هرب من بقى حيّاً منها إلى البحر - أي النيل - ولكنهم لم يستطيعوا السفر فيه إلى القاهرة ، لأن أهل المنصورة وقفوا لهم ومنعواهم . فلما نزل جنود الحامية إلى البر يريدون الهرب حاربهم المصريون حتى أفنواهم . ولما علم الجنرال دينزيه نبأ إفناء هذه الحامية وجه حملة مؤلفة من ثلاثة آلاف جندي إلى

المنصورة ، ولـسـكـنـه وجد من الحـكـمة ، ألا يحارب أهـلـها ، وفرض عليهم ضريبة من المال .

وكذلك قام أهل دمياط على حاميتها ، بزعامـة شيخ إقليم المنزلة الشيخ حسن طوبار . فاتفق أهـلـها مع أهل القرى المجاورة على التجمع في قرية « الشعرا » . ثم هجموا ليلاً على الحامية الفرنسية في دمياط . ولـسـكن الحامية ، بعد حرب غير متكافئة القوى ، تغلبت على الوطنيين . وهاجر الشيخ حسن طوبار إلى الشام .

وأشار نقولا أيضاً إلى الثورة التي قامت في الصعيد ضد الاحتلال الفرنسي ، وكان قائدها الشيخ محمد الجيلاني يقود جيشاً من الثوار تعدادهم سبعة آلاف . ويقول إنه قامت في دمنهور ثورة في شهر المحرم سنة ١٢١٢هـ - يوليو ١٧٩٩ - يقودها هذا المجاهد ، فسار إليها حاكم الإسكندرية وقائد حاميتها وحارب الثوار حتى هزمهم بعد جهد ، ولـسـكـنـه لم يتمكن من أسر قائد الثورة^(١) .

وفي العريش قام المصريون على حاميتها الفرنسية وأحرقوها داخل القلعة التي كانت تتحصن فيها ، واستولوا على القلعة .

(١) انظر فصل : « مجاهد من الغرب » ، الفصل السابق من هذا الكتاب .

أما الأمثلة التي ذكرها نقولا عن شجاعة المصريين، وروحهم المعنوية العالية ، فأكتفى من ذلك بمثل واحد ، هو الشيخ محمد كريم حاكم الإسكندرية ، فقد وقعت في يد نابليون رسائل منه إلى مراد بك يطلب فيها حضوره إلى الإسكندرية ، ويعلم استعدادَه لتسليم قلعتها إليه .

فحكم نابليون بإعدامه . وتشفع الأعيان والعلماء في الشيخ فلم يقبل منهم ولم يقبل الشيخ أن يفتدوه بمبلغ كبير من المال .

ولما سار الجند الفرنسيون بالشيخ إلى ساحة الإعدام ، كان ينادى في الجموع الحزينة ، الخاشعة ، التي تقف في طريقه : « الجهاد . الجهاد . . اليوم لي وغداً بكم . . ! »^(١) . أقتلوا الفرنسيين قبل أن يقتلوكم ، كما يقتلونني الآن .

(١) ترجمة السيد محمد كريم وجهاده ص ١١٨ — ١٢١ من كتابنا : دراسات في تاريخ الجبرتي ، مصر في القرن الثامن عشر ، الجزء — ٣ — الطبعة الثانية .

السيف والصبر

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
هكذا يقول أبو تمام في قصيدته البديعة عن فتح عمورية .

ولكن بعض الكتب وبعض الأقلام ، قد تكون أهدأ وقعا ،
وأقوى أثرا من السيف . والقلم ، في كل حال ، لا بد أن يمهّد للسيف ،
فيهيئ له النفوس ويملأ القلوب ويحنّد العواطف والمشاعر ، ويصوّر الظلم
فيثير الغضب ويحرك الثورة . وإذا كان صاحب القلم مؤمنا بفكرته ، مخلصا
في قصده ، ممتازا في نشاطه وثقافته ، محيطا بخصائص عصره . كان قلمه
أوقع من السيف وأقوى أثرا من الحديد والنار ، وأشد فتكا من
المتفجرات والقنابل .

وقد نرى في بطولاتنا العربية رجالا ونساءً جاهدوا وقاتلوا بالسيف
والنار ، وكانت لهم بذلك الكرامة والحمد والشهادة . وفي هذا الفصل
نقص سيرة مجاهد لم يحمل سيفاً ولا ناراً ، ومع ذلك كان أثر قلبه أقوى

من النار والحديد . وخشىَ الظالمون قلمه هذا وخافوا منه على عروشهم فأخرجوه من وطنه مصر حتى مات عنها غريباً . ولكنه ، في غربته البعيدة ، كان يرسل عليهم من قلمه لهيباً وُحماً تحرقهم وتزعزع عروشهم تلك .

* * *

مائة وعشرون سنة مرت على مولد رائد من أوائل الرواد وأكثرهم إخلاصاً وأبعدهم نشاطاً في تاريخ مصر الحديث . رائد يضعه نشاطه وإخلاصه ، وتضعه تضحياته ومثابرته في صفّ الرجال الذين بنّوا صرح الوطن المصري وأقاموا الحياة المصرية التي يشهد الجيل المعاصر نواحي متعددة منها ، يضعه إخلاصه ونشاطه وعمله في صفّ على مبارك وعبد الرحمن الكواكبي وعبد الله النديم ومصطفى كامل . ويزيد « أبونضارة » عنهم بتعدد أوجه النشاط السياسي والثقافي والصحفي الذي كان يباشره ويحسّنه ، أو يبلغ فيه درجة التفوق والإجادة والتبريز .

مصري مكافح ولد في حيّ « الموسكى » بالقاهرة ومات في باريس . وبين هذه وتلك نجد حياة حافلة بالنشاط والكفاح والتضحية والمثالية . والتجرد للفكرة : فكرة الحرية والتقادم والسعي الدائب المثابر لاستقلال مصر وتخليصها من المستبدين الظالمين ، وخاصة حكم إسماعيل .

حياته الشخصية كذلك مليئة بالغرائب والمتناقضات ، وتجمع أسرته بين الأديان الثلاثة الكبرى : اليهودية والمسيحية والإسلام . كان أبواه يهوديين وكان هو مسلماً . وتزوج مسيحية كاثوليكية وكان أولاده منها مسيحيين . ولذلك جَمَعَ الخصائص البارزة لطائفته التي نبتت منها أسرته ، وخصائص غيرهم من الذين تثقف بثقافتهم أو دخل في دينهم .

في سنة ١٨٣٩ حملت أمّه وقلوبها يضطرب بالخوف والرغبة ، فقد ولدت قبله أربعة أطفال ماتوا واحداً بعد واحد . لم يعيش منهم أحد أكثر من أسابيع قليلة . وكانت للأمّ صديقة تحبها وتستمع لرأيها ، فنصحت لها صديقتها هذه أن تقصد مسجد الشيخ عبد الوهاب الشعراي فتزور شيخه وتلتبس منه البركة والدعاء لجفيتها . وباركها الشيخ ودعا لها وبشرها بأنها ستلد ولداً . وطلب إليها الشيخ أن تهب ولدها لخدمة الإسلام . وولدت الأم طفلاً لم يعارض أبوه في أن يهبه لها وهبته أمه حيث طلب إليها الشيخ . فكان أول شيء تعلمه حين صار صبياً أن حفظ القرآن . فلما بلغ الثالثة عشرة كان ينظم الشعر . وفي الخامسة والعشرين أجاد ثمانى لغاتٍ حديثاً وكتابة . وعندما بلغ الأربعين كان - كما يقول هو - ويقول مؤرخوه - يجيد من اللغات اثنتى عشرة هي : العربية والعبرية والتركية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والبرتغالية والأسبانية والروسية والحربية والبولونية

وكان يعلم هذه اللغات لأبناء الخديوى وأبناء الطبقة الراقية. كما يعلمهم الموسيقى. وكما كان يعلم أبناء الطبقة الراقية اللغات والموسيقى ، كان يعمل لتثقيف الشعب وتثقيفه عن طريق المسرح والصحافة . بدأ نشاطه فى المسرح بدايةً أرسطقراطية أيضاً . فآلف مسرحية باللغة الإيطالية مثلت على المسارح الإيطالية ، ثم ألف مسرحيتين بعدها فكان نجاحه فيها جميعاً نجاحاً كبيراً. وفى سنة ١٨٦٩ « وهو فى سن الثلاثين » أنشأ مسرحاً عربياً لقي من أول يوم نجاحاً عظيماً . حضر حفل افتتاحه ثلاثة آلاف متفرج ، كان منهم رجال حاشية إسماعيل والوزراء . ومثلت فيه مسرحية هزلية قصيرة . وكان الممثلون فى فرقته كلهم من الرجال ، حتى الذين يقومون بأدوار النساء ، وبلغ نجاح « أبو نضارة » فى فرقته تلك شأواً بعيداً حتى طلب إليه إسماعيل إقامة حفلة ساهرة كبرى شهدها بنفسه وأعجب بها ، وبدأ الناس فى مصر يضعونه فى مثل منزلة موليير — أبو المسرح فى فرنسا — فسموه : « موليير مصر » .

وكانت مسرحياته ترمى إلى غايات سياسية وإصلاحية . لذلك بدأت الدسائسُ تعمل ضده عند إسماعيل حتى أمر بوقف نشاطه وأغلق مسرحه بعد سنتين من إنشائه . مع أن إسماعيل كان يعجب به ، وكلفه ببعض الرسائل والمهام قام بها فى أوروبا وقدم عنها تقريراً لإسماعيل . إتجه بعد ذلك للنشاط الثقافى ، فأسس الجمعيات الأدبية التى بدأت

تتحدث عن الإصلاح ومفاسد الحكم وحقوق الشعب . وطبيعى أن يشير ذلك إسماعيل ويضاعف من سخطه عليه . حتى رأى أنه لا يستطيع أن يباشر نشاطاً . ولم تُمَد الصحف المصرية تتحدث عنه أو تنشر له شيئاً أو تشير إليه . فقرر أن ينشئ لنفسه صحفاً . وكانت بدايته في الصحافة أيضاً شبيهة ببدايته في المسرح : أرسنة قراطية . فانشأ صحيفة بالفرنسية يبدو من اسمها نفسه منهجها في النقد والإزعاج . حيث سماها : « البعوضة » واتبعها بأخرى باللغة الإيطالية . وأصدر بعد ذلك صحيفة بثمانى لغات اختار لها اسماً مصرياً فسكها هو : « الثرثار المصرى » ، صدرت فى سنة ١٨٧٨ . وأصدر بعد هذه الصحف الأرسنة قراطية فى جملتها الصحيفة التى عرف بها والتي نالت نجاحاً صحفياً وسياسياً كبيراً وهى صحيفة « أبونضارة » . وكان إصداره لهذه الصحيفة بالاتفاق مع السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده . وكان الثائر الأول ، الشيخ جمال الدين ، يعرف قدر « أبونضارة » ويصادقه ويشجعه ويثنى عليه . وقد كتب مقالين فى صحيفته .

دام نشاط « أبونضارة » فى الصحافة من هذا التاريخ إلى نهاية حياته . مع نواح أخرى فى التأليف والمسرح . وكانت صحيفته تلك ، وما أصدره بعدها فى مصر وفى فرنسا ، صحفاً هزلية ، وهى أول صحف من هذا النوع عرفها الشرق . ولكن فكاهتها لم تكن هزلَ التسلية والسخف والإضحاك لإرضاء النفوس الفارغة . بل كانت فكاهة السخرية بالحاكم وتنبيه الشعب لحقه فى الحياة

والحرية وإثارته على ظلم حكامه بأسلوب لاذع فيكـه يستخدم فيه اللغة العامية التي يخاطب بها الشعب . فكان لأسلوبه هذا أبلغ الأثر في النفوس إذ ينبع من صميم مشاعره ، ويستخدم أمثاله وقصصه ، ويستمد من ثقافته وتاريخه ، ويلتقى مع مداركه ، ويصل عن طريق هذا كله إلى قرارة نفسه .

كان يثير السخرية بشخصية « شيخ الحارة » وإسرافه وبذخه وجهله وما يوقعه بالناس — سكان الحارة — من العسف والظلم وما يلزم تصرفاته من الجهل . وكان « شيخ الحارة » رمزاً لإسماعيل . يستطيع أن يدرك ذلك كل قارئ لصحفه . وكذلك يتناول في صحفه الحياة الاجتماعية في الشرق مطالباً بإصلاح الفاسد منها . وكذلك الأمر في مسرحياته الهزلية التي تناولت أساليب الحكم وفساد الحياة في المجتمع الشرقي لعهد .

ولكن الإدارة والتستر والتخفي ، لم تكن كافية لستر أهداف هذه الصحف والمسرحيات . فغضب إسماعيل على صاحبها وأمر بوقف صحفه وإبعاده عن مصر ، فسافر إلى باريس في سنة ١٨٧٨ حيث أقام بقية حياته . وفي باريس ظل يصدر صحفاً تتسم بنفس الطابع ، وتنهج النهج نفسه ، وتهدف إلى نفس الغايات التحررية والإصلاحية التي كانت تهدف إليها صحفه ومسرحياته في مصر . وكان يختار أسماء الصحف التي يصدرها في

باريس بنفس الروح المصرية الشعبية التي يختار بها أسماء صحفه وتمثيلياته في مصر . ففي باريس صدرت له « أبو نضارة » أيضا ، و « النضارات المصرية » و « أبو صفارة » و « أبو زمارة » و « الحاوي » و « الوطنى المصرى » وغيرها . ويضع على رأس صفحاتها الأولى طائفة من أسمائه وألقابه . فهو : الخواج جيمس سانو ، وأبو نضارة ، والشيخ جيمس أبو نضارة المصرى ، والشيخ أبو نضارة زرقاء ، والشيخ ج . أبو نضارة الخ . ويستخدم فى الإشارة إلى شخصيات عصره ألقاباً مصرية معتبرة تثير السخرية . فيشير إلى توفيق باسم : تلفيق ، وإلى نوبار باشا باسم : غوبار ، وإلى شريف باشا باسم : أبو أشرف ، ورياض : أبو ريضة . ويشير إلى توفيق أحيانا بوصف : ابن فرعون . واللورد كرومر يسميه : كرنب . أما عرابي فيشير إليه بلقب : سيد العرب . ويشير إلى الفلاح المصرى بوصف : أبو الغلب ، وكتشنر : كوشنكار .

وكانت له ، إلى جانب هذا النشاط المسرحى والصحفى ، نواحي نشاط أخرى متباينة . له كتب فى الرحلات ، وذكريات نثرية وشعرية ، وترجمة لحياته ، وترجمة لقسم كبير من القرآن باللغة الإنجليزية . عدا كثير من القصص والمسرحيات بالعربية والفرنسية والإيطالية . وظل يتابع هذا النشاط حتى مات فى سنة ١٩١٢ .

وكان يقول إن له ، إلى جانب رسالته الوطنية لتحرير مصر ، رسالة أخرى مقدسة : هي مكافحة الأباطيل التي كانت تفرق بين المسلمين والمسيحيين . وكان ، وهودون الخامسة عشرة ، يقرأ القرآن بالعربية والتوراة بالعبرية والإنجيل بالإنجليزية . وقام بجهود في تعريف الأدب العربي والإسلام إلى العالم الأوربي ، فترجم شعرا عربيا إلى الإيطالية ، ونشر دراسات بالإنجليزية عن الأدب العربي . ووضع تمثيلات بالإيطالية عن الحياة المصرية مثلتها المسارح الإيطالية بنجاح .

كما كان يضع على رأس بعض صحفه التي أصدرها في باريس أسها : لسان حال الأمة المصرية الحرة ، وشعارا آخر هو : مصر للمصريين . وأعله ، على ما أعتقد ، أول من صاغ هذا التعبير وأعلن هذا الشعار الذي بقي حيا متداولاً إلى عهد قريب .

ومن سيرة هذا البطل نعرف أن أهل الأديان الثلاثة السكبرى في وطننا كانوا جميعاً شركاء في كفاح الظلم وحرب الظالمين ، بالسيف والنار . أو بالقرطاس والقلم .

سِجَاعَةُ امْرَأَةٍ عَرَبِيَّةٍ

جاءت على مصر سنة ١٠٦٧ هـ (١٠٦٤ - ١٠٦٥ م) فكانت
بداية محنٍ قاسية على أهلها متلاحقةٍ حاطمةٍ . وقع فيها الغلاء . « الذي
فحش أمره وشنع ذكره ، واستمر سبع سنين » . وكانت الحروب تقع
بين العرب في البلاد والأقاليم ، وكان النيل منخفضاً لا يصل ماءه إلا إلى
طرفٍ قليل من الأرض ، وقليل ما كان هذا القليل يزرع ، لنقص الرجال
والبهائم وفقدان الأمن .

وجاء الوباء عقب الغلاء ، فتعطلت الأرض من الزرع ، وتعرّت
من الشجر والنبات . « وخيفت السبل برّاً وبحراً ، وتعذر السفر إلا
بالخفارة الكبيرة وركوب الغرر والخطر . واستولى الجوع لعدم القوت »
بيع أردب القمح بمائة دينار ، ثم عدم . وبيع الرغيف في سوق القناديل
بالفسطاط بخمسة عشر ، والبيض بدينار ، وأكلت القطط والكلاب حتى
قلّت ، وأخذ الناس يقيمون لها سوقاً تباع فيه وتشتري لتأكل « وأكلت
الدواب بأسرها فلم يبق للملك المستنصر ، سلطان مصر ، سوى ثلاثة
أفراس ، بعد أن كانت له عشرة آلاف ، ما بين فرسٍ وجمل ودابة .

وبيع الكلب بخمسة دنانير والسنور بثلاثة » وباع رجلٌ داراً كان قد اشتراها بتسعمائة دينار . بعشرين رطل دقيق : « ودخل رجل الحمام فقال له صاحبه . مَنْ تريد أن يخدمك ... ؟ سعد الدولة .. ؟ أو عز الدولة ، أو فخر الدولة .. ؟ فقال له الرجل . أنهزؤبى . ؟ فقال . لا والله .. ! انظر إليهم . فنظر فإذا أعيانُ الدولة ورؤساءها صاروا يخدمون الناس في الحمام لأنهم باعوا جميع موجودهم في الغلاء ، واحتاجوا إلى الخدمة . »

وتزايد الحال واشتد البلاء حتى أكل الناس بعضهم بعضاً . وكانوا يسرون في شوارع القاهرة المأهولة وطرقاتها يملأ الرعب قلوبهم خشية أن يخطفوا فيأكلهم الجائعون . فقد سمعوا أن فلاناً وفلاناً خطفهم الناس في الطريق ثم لم يظهر لهم أثر ولم يعرف مصيرهم أحد . وترك أكثر الناس مصر فلم يبق فيها إلا من أقعده العجز والفاقة والجوع .

أقيمت صلاة الجمعة في مسجد من مساجد القاهرة ، فلما وقف الإمام للصلاة لم يجد خلفه سوى ثلاثة ... ! وجاءت الجمعة القادمة فسمع الناس من ينادى عليهم بأن من يريد الخروج لصلاة الجمعة في هذا المسجد فليشترك كل ثلاثة في درهم حتى يسير معهم من يحرسهم من الخطف ... ! « وانقطع ماء النيل ، وبلغت الرمانة والسفرجلة ديناراً ، وكذا الخيارة . وكان يموت في مصر ، في كل يوم ، عشرة آلاف إنسان » :

ووجد بعض الذين برّح بهم الجوع أن الناس يسرون متحفزين خشية أن ينقضّ عليهم أحد فيخطفهم ، وكان الجائعون يجلسون على سطوح بيوتهم متجّمين ومعههم حبال « وكلايب » ، فإذا مرّ أحد إلى جوار البيت ألقوا عليه هذه « الكلايب » ثم رفعوه إلى سطح البيت بغاية السرعة وبكلّ ما بقى في سوا عدهم من قوة ، فإذا ألقوه بين أيديهم قطعوا لحمه وأكلوه ..! « واجتازت امرأة بزقاق القنادل ، وكان مسكن الأعيان وكبار القوم ، وكانت المرأة سمينة . فعلقها بعض الناس بالكلايب وقطعوا من عجزها قطعة وقعدوا يأكلونها ، وغفلوا عن المرأة ، فخرجت من الدار واستغاثت . فجاء الوالى وكبس الدار فأخرج منها ألوفاً من القتلى » .

وخرجت امرأة في القاهرة ومعهما كل ما تملك من ذهب وجوهر ، وكان شيئاً كثيراً ، وسارت في الطريق تنادى : من يأخذ هذا ويعطينى بدله دقيماً أو قمحاً ..؟ فلم يلتفت إليها أحد ، فألقته في الطريق فلم يمدّ له أحد يداً ..! « فكان ترك الناس له أعجب من إلقاءها إياه ..! »

أما المستنصر فقد باع كل ماحوته قصوره من ذخائر وفرش وآنية ، حتى ثيابه وسلاحه وماى قبور آبائه من حلى ، وباع ثياب جواريه ومهود أطفاله . وكانت في قصوره ، من زمن الطائع الخليفة العباسى ، ثياب يحفظها

خلفاء مصر ويحرصون عليها أشد الحرص — ليعتروا بها خلفاء العباسيين — فأخرجها المستنصر وباعها بأبخص ثمن ، وأخرج طنستًا وإبريقًا من البلور فبيعا بائني عشر درهما . ثم باع من هذا البلور ثمانين ألف قطعة ومن اليواقيت والجواهر والحرير الخسرواني ما لا يحصى «وثمانين ألف ثوب ، وعشرين ألف درع ، وعشرين ألف سيف محلي» . . . : «وصار المستنصر يجلس على حصير ، وتمطت دواوينه وذهب وقاره . وكانت نساء القصور يخرجن ناشرات شعورهن يصيحن : الجوع ..! الجوع ..! يردن المسير إلى القرافة فيسقطن ويمتن جوعًا» . وجاء وزير السلطان يوماً على بغلته فأنزله الناس من فوقها وأكلوها ..! وشنق الوزير بعض هؤلاء الذين أكلوا بغلته فتكاثروا عليهم الباقيون وأكلوهم ..!

وكانت في القاهرة سيدة شريفة واسعة الثراء حرصت على بعض ما في خزائنها من الطعام فبقيت لها مئة فضلة . فلما علمت أن السلطان يجلس على حصيره ولم يجد ما يأكله ، أرسلت إليه قصعة من الثريد : «الفتة» وبقيت ترسل له هذه القصعة ، طعاماً له ، في كل يوم مرة واحدة . ولم يكن السلطان يجد ما يأكله غيرها في نهاره وليله . أما بنات السلطان وأمه فقد خرجن من القاهرة إلى بغداد خوف أن يمتن جوعاً .

رغيف بألف دينار :

وخرجت امرأة ذات مال وحسب تحمل في طيات ثوبها عقداً بألف دينار وطافت به على من تعرف من الصاغة والتجار وأهل المروءة واليسار ترجوهم في أن يأخذوا عقدها ويعطوها فيه دقيقاً . ووجدت المرأة آخر الأمر من يأخذ عقدها ويعطيها فيه كيساً من دقيق . وأرادت أن تذهب به إلى بيتها فلم تجد من يحمله إلا بشرط أن يقاسمها فيه ، وأن يسير في خفارتها من يحميه من الناهبين . ووجدت من يحمي دقيقها بشرط أن يقتسم أيضاً . وسارت المرأة خلف الرجال يحملون كيس الدقيق ويحرسونه حتى قاربت أن تدخل بيتها في « باب زويلة » فلم تلبث أن رأت الناس قد هجموا على من يحمل الكيس وتكاثروا على حراسه حتى نهبوه . وتقدمت هي لتناول شيئاً من الدقيق فلم تستطع سوى أن تملأ يديها منه . ودخلت بيتها فوجدته مخبى منه رغيفاً ، وخبأت المرأة الرغيف في ثوبها ثم خرجت فتحايلت حتى دخلت باباً من أبواب قصر المستنصر ثم علت منه مرتقى وصاحت وهي ترفع الرغيف في يدها بحيث يراها الناس ؟ : أدعوا لمولانا المستنصر الذي أسعد الله الناس بأيامه حتى صار هذا الرغيف بألف دينار ...! وأخذت تردد ذلك وتصيح به زمناً ثم اختفت .

وسمع المستنصر قصة المرأة والرغيف فانقبضت نفسه وضاق صدره حتى
أوشك أن يهلك ، ثم ثار في قلبه الغضب وما كان باقياً فيه من سطوة
ونخوة وحزم ، فأحضر الوالى وأقسم له بالله إن لم يظهر الخبز في الأسواق
فهو لا بدّ قاتله ... !

وعمد الوالى إلى حيلة : طلب من السجن جماعة من الذين وجب عليهم
القتل فألبسهم ثياباً واسعة وعمائم وطيالس مثل لبس التجار . ثم جمع تجار
القمح والطحّانين والخبازين وجعل منهم مجلساً عظيماً حافلاً ، وأمر بأن يخرج
إليه واحد من المسجونين ، فلما خرج قال له غاضباً : كيف تجرؤ على عصيان
أمر مولانا وسيدنا وسلطاننا فتكسّر الغلال وتخفيها . . . ثم أمر أن
تضرب عنقه فضربت . وأخرج رجلاً آخر مثله فقال له وقد زاد غضبه :
ما تظنّ جزاءك على أن تحتكر الغلال وتخالف أمر مولانا وسيدنا السلطان
فتجسّس القمح عن الرعيّة . . . ؟ حتى فعل غيرك مثلك فجاء الناس . . . !
وأمر أن تضرب عنقه فضربت . ثم أمر بأن يدخل غيره ممن حكم عليهم
بالإعدام . ولما رأى تجار الغلة والخبازون والطحّانون هذه الرؤس تسقط
أمامهم قاموا إليه لا تحملهم أرجلهم من الخوف . وقالوا : أيها الأمير ؛
فى بعض ما جرى كفاية ، نحن نخرج الغلة وندير الطواحين ونظهر الخبز
كلّ رطل بدرهم . فقال الوالى . هذا لا يكفي ، فقالوا . كل رطلين بدرهم

وأخذوا يتضرعون اليه و يتوسلون حتى قبل منهم .

وذكر الناس بالخير هذه السيدة الشجاعة التي اشترت الرغيف
بألف دينار . . . !

وشاء الله بعد ذلك أن يرتفع الوباء ، ويعلوماء النيل ، وتخصيب
أرض مصر . بعد أن بقيَ الناس بين الفناء والبأساء سبع سفن ، كسفين
يوسف .

السلطان الشهيد طومان باي

في شهر رجب من سنة ٩٢٣ [أغسطس ١٥١٦ م] التقّت في «مرّج دابق» بالقرب من حلب، جيوش مصر وعلى رأسها سلطانها «الملك الأشرف قانصوه الغوري» بجيوش سلطان تركيا سليم شاه. وكسرت جيوش الغوري بعد ساعات قليلة بسبب الخيانة، ولكن سلطان مصر لم يبرح مكانه في ساحة الحرب، حتى قتل تحت رايته. وكان السلطان سليم قد قهر قبل ذلك الشاه إسماعيل، شاه إيران.

دخل سليم مدينة حلب، واستولى على بقية بلاد الشام، ثم نزل بعد ذلك إلى مصر، حتى وصل «الريدانية»^(١) من أطراف القاهرة فالتقى بسلطانها العظيم. «طومان باي».

ولم تكن المقادير التي جرت على طومان باي خيرا من تلك التي لقيها سلفه الغوري، فقد هزمت جيوش مصر في هذه الموقعة كما هزمت في «مرّج دابق».

(١) العباسية الآن.

وفي الأيام الأولى من شهر المحرم للسنة التالية كان سليم يقيم في السراق، الذي نصبه لنفسه على شاطئ النيل في بولاق وقد خيل إليه أن مصر وسلطانها قد استسلما لبطشه ، وسألما بما جرت به المقادير .

ولكن . في عتمة العشاء من ليلة الأربعاء ، وكان اليوم الخامس من المحرم ، تنادى الصائحون الخائفون في معسكر السلطان بأنهم أحيطوا من كل جانب ، وتلفت السلطان فوجد بعض خيامه يحترق وشاهد عددا من الجمال تحمل على ظهورها أثقالا تتوهج فيها النار ، وهي تجري بين خيامه تشعل النار في كل شيء ، وتنشر الذعر بين خاصة جنوده وقواده وحرسه . وكان المصريون هم الذين أطلقوا هذه الجمال بأثقالها المحترقة في معسكر السلطان . وشهد الأتراك وسلطانهم بريق السيوف في ظلمة الليل وضوء هذه النار المدمرة وهي تطيح برؤوس جنده من حوله ، حتى أوشكت أن أن تناله هو .

وتقدم بعد ذلك الرجال والصبيان من سكان بولاق ، ونوتية السفن الراسية على النيل يهجمون على سرادق السلطان سليم يرمونه بالحجارة وقطع الأخشاب المشتعلة ، وكل ما تصل إليه أيديهم « حتى قتل من عسكر ابن عثمان مالا يحصى عددهم » وظل هذا الهجوم ، من طومان باي .

ومن بقي من جنوده ومن شعب القاهرة الذي شاهد المعركة أو سمع بها ،
ظل المهجوم متصلاً قويا إلى أن أصبح الصبح ، وحتى ظن سليم أنه سيقع
في يد المصريين .

وأشرق نور الصباح وقد أحاط المصريون وسلطانهم بسرادق سليم ،
وشهد الأبطال المهاجمون عسكرياً كثيفاً قدم لنصرتهم من « الناصرية »
يقوده أمير من أمراء طومان باي فاشتدّ به ساعدهم وقوى هجومهم ، حتى
« كانت هناك واقعة تشيب منها النواصي » . وظلت الحرب مستمرة بين
الفریقین من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، واستردّ المصريون في ذلك
النهار قسماً كبيراً من مدينة القاهرة . وفي أثناء ذلك أحاط العرب بمعسكر
السلطان سليم الذي أقامه في الريدانية وهاجموه هجومًا شديدًا ونهبوا
ما فيه . وظلت القاهرة مسرحاً كبيراً للاضطراب والفوضى ، واستمرّ
القتال والقتل بين المصريين وعسكر السلطان سليم ، على أعنف ما يكون .
انقتال والقتل . وكان السلطان طومان باي يقف في مكان ما بالقاهرة يتعرّف
أنباء القتال وتلقى أمامه رؤوس الكبار من قتلى العثمانيين . وكان هؤلاء
يهاجمون البيوت والمساجد وأضرحة الأولياء ويقتلون الشيوخ والعجزة
والصبيان .

وظهر طومان باي في حيّ « الصليبية » على ظهر فرسه يقاتل ويهاجم

حتى استولى على ما بينها وبين قناطر السباع . ولم يكن معه سوى نفر
تقايل من أمرائه وجنده . فأسرع بإقامة خندق يحيط بالأماكن التي استرجعها :
[من الصليبية إلى قناطر السباع إلى ميدان الرميلة ^(١) إلى جامع ابن طولون
إلى حِذْرَة البقر] وأراد أن يشعل النار فيما استولى عليه العثمانيون من أحياء
القاهرة . ثم عدل عن ذلك ، لأن من بينها حتى « خان الخليلي » . وأخذ
بعد ذلك يقسم جنوده للحرب والهجوم على جند السلطان سليم حينما
كانوا . وبذل في ذلك كل جهد وحيلة ومقدرة . وكان فريق من جند
مصر يتترس في مسجد السيدة نفيسة ويحارب العثمانيين منه . فاقتحم جند
السلطان سليم المسجد وتغلبون على من فيه : (ودخلوا إلى ضريحها وداسوا
على قبرها وأخذوا قناديلها الفضة والشمع الذي كان عند قبرها وسجاجيد
الزاوية وأخذوا من مقامها شيئاً كثيراً) وقتلوا من كان في المقام من
المحاربين والمسلمين .

وصعد جماعة من جند مصر إلى مأذنة جامع « المؤيد » يحاربون
الأتراك ببنادقهم ، وظلوا يحاربون حتى تساق عليهم الأتراك المأذنة وقتلهم
حتى آخر رجل .

(١) الآن ميدان القلعة .

وكانت معركة فناء في كل حيّ وشارع وبيت : (صارت القتلى من الجانبين أجسادهم مرمية من بولاق إلى قناطر السباع إلى الرميّة إلى تحت القلعة ، وفي الحارات والأزقة وهم أبدان بلا رؤوس). وكان السلطان طومان باي يحارب بنفسه في كل هذه الأماكن ويحرّض الناس على المقاومة . رغم قلة جنده وإعيائهم . وكلما نقص عدد جنده زادت حماسته اشتعالاً وزاد قتاله وفتكه شدّة وضراوة ، وظل هذا حاله أربعة أيام متوالية . حتى لم يبق معه سوى نفر قليل . عند ذلك رأى من الحكمة والخير أن يختفى ليظهر مرة أخرى بعد أن يجهّز جنداً جديداً ، ويضع خطة جديدة .

وأنزل السلطان سليم وجنده غضبهم وطغيانهم وشرّهم على المسلمين . والضعفاء من أهل القاهرة وسلّطوا عليهم سيف انتقامهم . واقتحموا مساجد الأزهر وابن طولون والحاكم بأمر الله وكثيراً من المساجد والزوايا والتكايا يقتلون ويسفكون الدماء . يقول ابن إياس مؤرّخ هذه الوقائع وشاهدها : أنّ من قتل من أهل القاهرة يوم ذاك بلغ عشرة آلاف . ووقع أسيراً في أيديهم ثمانمائة من جند طومان باي ، فقتلوهم جميعاً بين يدي السلطان سليم . وكثرت الكلاب في القاهرة تنهش أجساد القتلى . وأسرت كثيرات من كبريات نساء مصر . منهن السلطانة زوجة السلطان .

طومان باى ، ونقلن إلى حيث يقيم السلطان سليم فلم يلتقيت لهن . ثم أمر بفرض ضريبة فادحة على زوجة طومان باى .

أراد السلطان سليم بعد ذلك أن يباشر سلطانه ، وأن يصعد إلى القلعة ، قلعة القاهرة المعزية ، مقر الملك والحكم إذ ذاك . ولكنه كان يخشى غضب المصريين وانتقامهم . وكان يخاف أن يبطشوا به وهو في طريقه إليها . فأمر بأن يترك الناس بيوتهم ومساكنهم على طول الطريق إلى القلعة . وأن تخلى المسالك والدروب والمساجد والأماكن التي تقع في طريق سيره . وبقي أياما ينادى على ذلك في القاهرة كلها . فلما أمن على نفسه صعد إلى القلعة . وأمر بأن ينادى بالأمان على أهل القاهرة . وأنه ليس يصيبهم سوء . وفي تعبير ابن إياس الساذج الصادق المؤثر نجد صورة لواقع هذا الأمان في نفوس الناس ، وصدقه عند الجنود العثمانيين من رجال السلطان سليم . يقول ابن إياس : (... وكيف الأمان وقد خرجت الناس من بيوتهم على وجوههم في أسوأ الأحوال ... وهجمت الطوائف العثمانية على الناس في بيوتهم وأخرجوهم منها وسكنوا بها حتى صارت الحارات والأزقة ما تنشق منهم وصاروا كالجراد المنتشر . وهدم الجنود العثمانيون بيوتاً ومساكن كثيرة استولوا عليها) .

ويعصف ابن إياس شعور المصريين بعد انتهاء مقاومتهم الباسلة .
هذه بأن الناس عندما عرفوا أن عدوهم السلطان سليم سيصعد إلى القلعة :
« إنطلقت في قلوبهم جحرة نار » .

وقد قتل سليم عددا كبيرا من المصريين بعد أن أعطاهم الأمان ،
وساق خلفه عددا منهم مقيدين بالحبال عند صعوده القلعة .

ولا نتحدث عما أصاب القاهرة بعد ذلك من الجوع والقحط والخوف ،
ولا ما أوقعه سليم وجندُه بالناس من الظلم والقتل ، فهذا حديث يطول ،
وليس مما نحن بسبيله في هذا الفصل .

وكان من أول ما شهد المصريون من مظاهر الحكم التركي الجديد
أن نصبت خارج القلعة « خيمة » فيها شراب « البوظة » وأخرى فيها
« الحشيش » وثالثة فيها صبيان مرّد « لأجل المحارفة » كما يقول ابن إياس .

* * *

تردّدت بعد ذلك أنباء كثيرة عن طومان باي وسمعيه في الصعيد
ليجتمع الناس من حوله فيعود بهم إلى القاهرة ليحارب فيها العثمانيين مرة
أخرى . وكانت هذه الأنباء تصل إلى السلطان سليم في القلعة فتدخل في
قلبه الخوف ، ويزداد بطشه على أهل مصر .

وفي يوم الأحد ٦ ربيع الأول من سنة ٩١٣ [مارس ١٥١٧] خرج السلطان من القاهرة إلى الجيزة بعد أن تأكد له قدوم طومان باي لحربه وإخراجه من مصر . فرأى أنه لو بقي فيها حتى يجيء طومان باي لوقع بين نارين : جيش سلطان مصر ومن معه من المصريين والعرب الذين نجّموا معه . وشعب القاهرة الساخط الغاضب المتحفّز للانتقام والثأر والثورة .

وبقي سليم ينتظر في الجيزة حتى قدمت جيوش مصر وعلى رأسها سلطانها طومان باي يوم الخميس ، بعد أربعة أيام .

وكانت بين الجيشين موقعة فناء ، أشدّ هولا وإصرارا وضراوة من المواقع السابقة ، وهزمت جيوش السلطان سليم أكثر من مرة ، حتى ألقى الكثيرون من جنده أنفسهم في النيل ، هرباً من سطوة المصريين وسيوفهم ونيرانهم ، وقتل من الأتراك عدد كبير ، حرباً وغرقاً . ولكن النهاية لم تكن كما شاء طومان باي وشاء المصريون ، وكانت هذه هي المعركة الخامسة بين جيوش الأتراك المعتدية وجيوش مصر المدافعة الباسلة .

ولسكن طومان باي - رغم شجاعته النادرة وإصراره على الحرب والنصر - كان « أرشل » كما يصفه ابن إياس ، أي سيّء الحظ .

انطلق طومان باى بعد أن دافع عن وطنه ومملكه وشرفه دفاع الأبطال،
إلى قرية « البوطة » من قرى مديرية البحيرة .

وكان يقيم فى هذه القرية شيخ من شيوخ العرب هو حسن مرعى .

* * *

أمر سليم بعد نهاية المعركة أن يقتل زعماء المقاومة من المماليك
والمصريين . فقتل منهم نحو ثمانمائة . ووضعت رؤوسهم على أعمدة من
الخشب طاف بها الطائفون شوارع القاهرة ليراها أهلها . وأخش سليم
ورجاله بعد ذلك فى ظلم الناس وإرهابهم إلى أبعد غاية . وأخذ سليم ينقل
من معالم القاهرة ومساجدها كل شىء يعجبه ، وكل صاحب صنعة دقيقة .
أخذ يجمع ذلك كله ، حتى الرخام الجميل وأعمدة المساجد والحمّامات ، ويأمر
بنقل ذلك كله إلى الأستانة . نقل ذلك على ألف جمل ، كما يقول الجبرتى .
وبلغ من جمعهم سليم من رجال الصنعة الدقيقة والحرف الفنية أكثر
من ألف صانع وعامل . نقلهم جميعاً من مصر إلى تركيا . وكان لذلك
أثره البعيد فى الفن والصناعة لفترة طويلة بعد ذلك . حتى عديمت من
مصر صناعات فنية دقيقة . وتلاشى أمرها فنسيت وماتت .

الحياة مرة أخرى :

فى قرية « البوطة » نزل طومان باى على صديقه شيخ العرب حسن
(م ١٣ — بطولات عربية)

مرعى وابن أخيه « شكر » . وكان حسن مرعى هذا مديناً لطومان
باى بأفضال كثيرة : كان حسن مرعى سجيناً من عهد سلطان مصر السابق
« الغورى » فأخرجه طومان باى من السجن . وكثيراً ما دفع له طومان
باى مالا يستطيع دفعه من الأموال والمغارم التى كان يفرضها عليه الغورى .
فكان من حق طومان باى أن يطمع فى عرفان الجميل عند صديقه هذا .
وابن إياس يقول إن حسن مرعى هو الذى طلب إلى طومان باى أن
يختبئ عنده ... !

ولما نزل السلطان على حسن مرعى وابن أخيه ، أحضر مصحفاً وطلب
إليهما أن يقسما ألا يخوناه ولا يشيا به ولا يجعلان خبره يصل إلى عدوه
وعدوه وطنهما سليم . فأقسم حسن مرعى وابن أخيه على ذلك سبع مرات ،
على المصحف الشريف .

عند ذلك أمن طومان باى ورضى أن يقيم عندهما . وبدأ المصريون
وعرب البحيرة يتجمعون مرة أخرى حول السلطان ويلتقون به . وليس
بعيداً أن يراوده الأمل مرة أخرى فى أن يجمع شمل المقاومة المصرية فيعود
إلى حرب غريمه السلطان سليم فى القاهرة . ولكن الخيانة أيضاً كانت من
وراء هذا الأمل وهذا السعى ، فقد أرسل شيخ العرب حسن مرعى وابن

أخيه إلى سليم نبأ طومان باى وقدمه إليهم ، وأنهم يحتجزونه حتى يرسل
لهم من يأسره .

و بادر السلطان سليم عند ذلك فأرسل جماعة من جنده حيث أخذوا
السلطان الشهيد من عند صديقه الخائن حسن مرعى . وكانت يد السلطان
التي حملت السيف وعرفت كيف تدافع به عن شرف مصر ، ولم تلقه إلا
الترفعه مرة أخرى . كانت يد السلطان مكبلة بالحديد ، يحيط به حرس
شديد من جنود السلطان سليم ، وكان ما يزال متخفياً ، زيادة في الحيلة
والحذر ، يلبس ملابس عرب الهوارة في الصعيد . وانفض الناس
الذين بدأوا يتجمعون حوله .

سارع الجند بالسلطان الأسير إلى غريمه وعدوه ، فبادر هذا بملاقاه
وأمر أن يسرعوا بإدخاله عليه ، وكما كان طومان باى شجاعاً في حربه .
كان شجاعاً جسوراً في أشدّ المواقف حرجاً وضيقاً . موقف الأسير المقهور
أمام عدوه الظافر القاهر المتغلب ، الذي يمتلأ قلبه زهواً وغضباً وحقداً .
لم يشعر في هذا الموقف السكريه بشيء من الذلة أو التخاذل ، بل كان ممثلاً
القلب كبرياء وعزة وشجاعة وأنفة . عندما أدخل طومان باى على سليم
استقبله هذا واقفاً ، ثم قال له : « لماذا لم تعترف بسلطتي وتدخل في طاعتي
عندما دعوتك إلى ذلك .. ؟ » فأجابه طومان باى : « إني مكلف

بالدفاع عن بلدى الذى أحكمه ويجب على أن أحياه وأصونه . كما يجب أن أصون الحرّمين الشريفين : مكة والمدينة . أمّا أنت فما أدرى كيف تبرّء نفسك أمام الله من عدوّك الظالم علينا وعلى بلادنا . . ! » وأخذت الدهشة قلب السلطان سليم وعقدت لسانه . ولكن طومان باى انطلق يقول : « إنك يا سلطان تركيا غير ملوم على سقوط مملكتنا وهزيمتنا . بل الذنب كله على الخونة . . ! » وأشار إلى خيربك وچان بردى الغزالي : الخائنين الذين تواطؤا من قبل مع سليم ، وكانت خيانتهم سبباً فى هزيمة مصر وسلطانها .

وكانت شجاعة طومان باى فى هذا الموقف العصيب سبباً فى تقدير السلطان سليم له واحترامه إيّاه ، فقال : ليس من العدل أن نقتل رجلاً شجاعاً صادق العزيمة كهذا الرجل ، وانتهى مجلس السلطان .

« ولكن الخائنين خشياً على حياتهم . ولم يجدا لهما أماناً إلا فى أن يقتل طومان باى ، فاحتملوا لذلك . إذ حرّضوا بعض أتباعهم ليقف فى طريق ركب السلطان سليم ، حتى إذا مرّ دعوا لطومان باى بالنصر وطول العمر . و مرّ السلطان سليم فى ركبه فسمع ناساً يقولون بصوت مرتفع : « الله ينصر السلطان طومان باى . . ! » فثارت فى نفسه الهواجس والوساوس . وأكمل الخائنان تدبيرهما « فحرّكا فى قلب السلطان سليم الغضب والخوف .

وحرّضاه على قتل غريمه ، لأن الناس يحبونه ، وقد تحدثُ في مصر أحداث
إذا تركه سليم حيّاً ورجع إلى تركيا . وكانت نفس السلطان سليم مهتأةً
لذلك ، بعد ما سمع وشاهد من الدعاء والنداء .

بعد تلك المقابلة العاصفة ، وهذه الدسيسة الخسيسة . اعتزم السلطان سليم
أن يقتل سلطان مصر الشهيد الشجاع . فأبقاه إلى جواره في « الخيمة » التي
كان يقيم بها في « امبابة » ، مبعة عشر يوماً ، حتى جاء يوم الاثنين ١٩ من
ربيع الأول ، فنقلوه إلى بولاق في حراسة أربع مائة جندي عثماني . وكان
يركب « كديشا »^(١) وعليه ثياب التي أسر بها في زى عرب الهوارة . والحديد
في يديه ، فسار به حرسه من « مرجوش » وقد تجمّع الناس إلى جانبي
الطريق لرؤيته . وكان يلقي عليهم السلام ويحييهم وهو لا يعرف ماذا
يريد به أعداءه . وكان أهل القاهرة يعتقدون أن السلطان سليم أمر بنقله
إلى مكة . ولكن حرسه وقف به عند « باب زويلة » ثم أنزلوه من فوق
كديشه وأرخوا الحبال التي كانوا يوثقونه بها . والتفوا حوله وسيوفهم
مسلولة .

نهاية بطل :

وأدرك السلطان عندئذٍ أنه سيشتق ، فوقف على قدميه رافع الرأس

(١) الفرس الهجين : غير الأصيل

شاحنا ثم قرأ الفاتحة ثلاث مرات وطلب إلى مَنْ حوله من الناس أن يقرأوها ، فقرأوا ، ثم قال لمن سيُشنقه : « إبدأ عملك ... ! » وانقطع الحبل من حول عنقه فسقط على الأرض مرتين أو ثلاثا وهو مكشوف الرأس .

« فلما شنق وطامت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة » وكثر عليه الحزن والأسف ، فإنه كان شابا حسن الشكل كريم الأخلاق وكان شجاعا بطالا تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب بنفسه وفتك في عسكر ابن عثمان وقتل منهم مالا يحصى ، وكسرهم ثلاث مرات وهو في نفر قليل من عسكره . ووقع منه في الحرب أمور لم تقع من الأبطال العناترة . . وكان لمّا سافر عمّه السلطان الغورى جعله نائب الغيبة عنه إلى أن يحضر من حلب ، فساس الناس في غيبة السلطان أحسن سياسة ، وكانت الناس عنه راضية في غيبة السلطان ، وكانت القاهرة في تلك الأيام في غاية الأمن من المناسر والحريق وغير ذلك . ولما مات السلطان الغورى عمّه وتسلطن عوّضه ، أ بطل من المظالم أشياء كثيرة ولم يشوش على أحد في مدة سلطنته . ولما وصل السلطان سليم إلى الشام وأراد أن يخرج لحربه ، كانت خزائن مصر خالية . فنصحه مستشاروه أن يأخذ من أهل القاهرة أجور مساكنهم سبعة شهور مقدّمة ، وأن يأخذ ضرائب الأطيان سنة مقدّمة . فلم يسمع لهم شيئا وأبى من ذلك وقال : « لا أجعل هذا مستطرا في صحتي » وعندما

شُنق طومان باى كانت سنّهُ أربعاً وأربعين سنة. وسلطنته على مصر دامت ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً. وبقي جثمانه معلقاً على « باب زويلة » ثلاثة أيام حتى ظهرت رائحته. وبعد ذلك أنزلوه ووضعوه في تابوت ثم نقلوه إلى مدرسة عمّه الغورى فدفنوه في فناءها الخافى. « ولم يسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم من الزمان أن سلطان مصر شُنق على باب زويلة قط، ولم يعمّد مثل هذا ».

وقد وضع ابن إياس — الذى نقلنا عنه السطور السابقة — قصيدة في رثاء طومان باى نلمس فيها صدق العاطفة، ووقع الفاجعة في هذا السلطان الشهيد. على ما في هذه القصيدة من ركّة النسج وضعف الأسلوب، الذين كانا طابع الشعر والنثر في ذلك العصر.

يقول ابن إياس :

نوحوا على مصرٍ لأمرٍ قد جرى من حادثٍ عمت مصيبتُه الورى
ثم يصف هزيمة جيش مصر أمام السلطان سليم، ويصف ملوك مصر وعظمتها المنهارة، وأعيادها وأمجادها ونظام جيوشها وقوتها. ويصف، في تأثرٍ وتفصيل، ما أوقعه سليم وجنوده من الخراب والشرّ بالقاهرة

ومساجدها وبيوتها ، حتى « الخيمة العظمى » ، التي كانت مخصصة لمولد
النبي الكريم ، بيعت بأبخس الأثمان . ثم يجمل ما فصل فيقول !:

زالت محاسن مصر من أشياء قد كانت بها تزهو على كل القرى
لهفى على الأمراء كيف تشبّثوا وخلت منازلهم وعادت مقفرا

ويصف قتل الشيوخ والأطفال وامتهان الحصنات من النساء ، ثم
يتلّاه على سلطان مصر الشهيد طومان باي في هذه الأبيات الحزينة الجازعة:

لهفى على سلطان مصر كيف قد ولّى وزال ، كأنه لم « يذكرا »
شعقوه ظلماً فوق باب زويلة ولقد أذاقوه العذاب الأكبر
ياربّ فاعفو عن عظام جرمه واجعل جنان الخلد ربّ ، له قرا^(١)

جمرّة النار

وقد أوشكت « جمرّة النار » التي قال ابن إياس إنها اشتعلت في قلوب
المصريين من قتل سلطانهم الشهيد . أوشكت هذه الجمرّة أن يحترق بها
السلطان سليم فتزديه وتُنهي حياته .

(١) هذه الأبيات وحدها هي الموجودة في تاريخ ابن إياس . والقصيدة كاملة في
خطوط على مبارك ص ٦٢ — ٦٣ من الجزء ١٥ .

والمقتبسات عن ابن إياس في الصفحات ١٧٢ — ١٧٤ الجزء ٥ — ٥ . من
تاريخه . طبع جمعية المستشرقين الألمان في اسطنبول سنة ١٩٣٢ بإشراف كالة ومحمد مصطفى
وموريس سورنهام .

فقد تجمّع فريق ممن بقى من خاصّة طومان باى ، وأحكموا أمرهم على
مؤامرة يغتالون فيها السلطان سليم .

كان سليم يقيم فى « قصر المقياس » بجزيرة الروضة . وكان حرسه
الشديد يحيط به من كل مكان نهاراً وليلاً . واختار الأمير « قانصوه العادلى »
أحد أمراء الحند فى جيش طومان باى ، ليلة مظلمة . فنزل النيل فى مركب
صغير يحرسه بعض المتآمرين من المصريين ، وصعد من سلم المقياس إلى حيث
دخل القصر . وسمع حديث الحرس فاخترق منه حتى انقطع الحديث . وسار فى
طريقه إلى حيث ينام السلطان سليم ، ولكن بعض الحرس أحسّ به فتصايح
على إخوانه . وأمسك الجميع سيوفهم يهاجمون البطل المتسلل . وقد شهده
بأعينهم يلبس ثياب الأعراب . فلما أيقن أنهم مدرّكوه ، ألقى بنفسه فى
النيل ، وكان أنصاره ينتظرونه فى المركب فأسرعوا إليه وحملوه بعد أن قطع
مسافة طويلة وهو عائم ، وحرس السلطان سليم يكثر من إطلاق الرصاص
عليه ، وكان السلطان قد استيقظ خائفاً فزعاً ، وأخذ يصيح فى حرسه ألا يكف
عن إطلاق النار حتى يقتل هذا الزائر البغيض . ولكن الأمير المغامر
استطاع ومعه إخوانه ، أن يصل إلى البر وينجو عند ساحل بولاق .

أما الخائن حسن مرعى فقد تلقى ثمن خيائته من السلطان سليم ،
حيث كافأه وأ نعم عليه .

ولسكنّه لقيَ جزاءَ خيانتِهِ من مصر أيضا . حيث هاجمه المصريون
ومن نجا من الشراكسة ، مماليكُ طومان باي وأنصاره ، فذبحوا هذا
الخائن وشربوا من دمه ، وكذلك قتلوا أخاه « شكرا » . وأظهروا الفرح
بقتل الخائنين . فأقاموا في القاهرة معالم الزينة والبهجة ، أمام أعين الأتراك .

مُجَابَّ وَبَطُولَة*

(*) أ كثر هذه الفصول أذيع من محطة الإذاعة المصرية خلال سنة ١٩٥٧

صبي أسود

كان الصحابة والمجاهدون من المؤمنين خارجين من المدينة لملاقاة المشركين الذين قدّموا لحربهم في وطنهم وديارهم ، وكان النبي عليه السلام يلبس درّعه ويسير معهم للحرب . ورأى الناسُ بينهم صبياً أسود يحدّ في السير يلحق بهم . فعجبوا لأمره ، وأعجبوا بإيمانه وشجاعته ، وأعادوه إلى المدينة لصغر سنّه ، وهو كاره .

ولقى المسلمون في غزوة أُحُدٍ هذه بلاءاً وشدة : قتل فيها حمزة ، عمّ النبي وسيد الشهداء ، وأصيب النبي بجرحٍ في وجهه وشفّته وجبهته . وكان من أسباب هذا البلاء وهذه الشدة أن اليهود الذين حالفوا المسلمين وخرجوا للحرب معهم ، تركوهم قبل الموقعة وعادوا إلى المدينة . فكان المسلمون سبعةً ، والمشركون ثلاثة آلاف .

وعاد النبي وأصحابه يتحدّثون عما أصابهم ويتحدّثون عن هذا الصبي الذي كان يريد أن يلحق بهم ويجاهد . فعرف من لم يمكن يعرف أنه : « أسامة » ، ذلك الذي يحبّه رسول الله حبّاً جمّاً ، كما يحب أباه أيضاً .

شهد النبي أباه عبداً يباع فأحبّه ، وطلب إلى زوجته خديجة أن تشتريه ، فاشتريته

وأعتقته . وتبناه النبي وأضحى عليه من حبه وبره . وأحب ابنه أسامة أيضاً .
وباغ من حب النبي عليه السلام لابنه أسامة أن كان يركبه خلفه على ظهر
دابته وهو يدخل السكبة . وكان يجلسه على حجره مع الحسين بن علي ،
حب رسول الله وابن حبه ، ويقول : « اللهم إني أحبّهما فأحبّهما »

وقتل زيد في حرب الروم ، في غزوة مؤتة : مزقته رماح العدو وهو
يحمل راية النبي عليه السلام .

اختار النبي أسامة أميراً على الجيش لغزو الشام ، وما يزال صغيراً ،
وأمره أن تطأ خيوله أرض « البلقاء » وما جاورها من مؤتة ، في أرض
فلسطين ، حيث قتل أبوه . وأن يهجم على عدوه في بكور الصباح .

وخرج النبي وهو في مرض الموت ، فرقى المنبر وأوصى المسلمين بأن
يتبعوا جيش أسامة . ثم قال : « لأن قلتكم في إمارته شيئاً فقد قلتم في إمارة
أبيه من قبل . وإنه لأهل للإمارة كما كان أبوه أهلاً لها »

واستأذن أسامة النبي في صحوة الموت أن يخرج فأذنه . ثم عاد أسامة
من الطريق بعد أن بلغه موت النبي ، فدخل المدينة فغرس رايته عند باب
عائشة . ودخل يصب الماء على جسده الطاهر للغسل ، من فوق قميصه .

وتحدث المسلمون مرة أخرى في إمارة أسامة على الجيش ، وفيه من هم

أَسَنَ مِنْهُ وَأَكْبَرَ . وَاعْتَرَضَ عُمَرُ عَلَى إِمَارَتِهِ وَبَعْثِهِ . وَلَكِنْ أَبَا بَكْرٍ أَبِي
إِلَّا أَنْ يَنْجِزَ مَا أَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ . وَخَرَجَ أَسَامَةُ أَمِيرًا عَلَى جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ ،
وَرَضِيَ عُمَرُ . وَسَارَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ خَلْفَ الْقَائِدِ الْفَتْحِيِّ يُوْدَعَانَهُ . فَلَمَّا افْتَرَقُوا
لَا سِتَازَنَ أَبُو بَكْرٍ أَسَامَةَ فِي بَقَاءِ عُمَرَ فَأَذِنَ .

* * *

لَمْ تَمُضْ عَشْرُونَ يَوْمًا حَتَّى أَغَارَ أَسَامَةُ وَجَيْشُهُ عَلَى الْبَلْقَاءِ ، فَثَارَ لِأَبِيهِ
وَلِلْمُسْلِمِينَ ثَارًا عَظِيمًا . وَهَزَمَ أَعْدَاءَهُ شَرَّ هَزِيمَةٍ . وَكَانَتْ صَيْحَتُهُ وَصَيْحَةُ
جُنْدِهِ وَهُمْ يَهَاجِمُونَ وَيَقْتُلُونَ : « يَا مَنْصُورُ أُمِّتُ » . وَانْتَصَرَ أَسَامَةُ وَعَادَ إِلَى
الْمَدِينَةِ يَمْتَلِئُ الْجَوَادَ الَّذِي قَتَلَ أَبُوهُ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى ظَهْرِهِ . وَيَرْفَعُ الْلَوَاءَ
فَالَّذِي عَقَدَهُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ بِيَدِهِ .

إمض بنا إلى حيث تريد

بقى النبي والمسلمون من المهاجرين والأنصار سنتهم الأولى بعد هجرتهم إلى المدينة مطمئنين آمنين على دينهم ، بعد أن كانوا في مكة يلقون من عنيت المشركين وشدتهم عليهم محنة عظيمة . بقوا هذه السنة هاتئين فرحين بتلك الأخوة التي وثق عراها بينهم رسول الله ، يقتسمون ما يملكون من متاع ومال في شئون حياتهم ومعاشهم ، ويشتركون في عاطفة واحدة من التفاني والمحبة وثقتها بينهم وشيعة الدين وتلك القدوة المثالية الرائعة التي كانوا يرونها في الرسول الكريم . فلما جاءت السنة الثانية من الهجرة كانت قافلة الكفار قريش على وشك أن تمر بمحاذاة المدينة في طريق عودتها من الشام إلى مكة تحمل تجارة عظيمة لهم . وكان النبي عليه السلام قد أوقف من يرصدها ليعرف موعد قدومها . وجاء هذا الراصد يخبر النبي أن القافلة أصبحت قريبة من المدينة ، وعمّا قريب تمر بها . فجهّز النبي جيشاً صغيراً يزيد قليلاً على ثلاثمائة ، وخرج به ليقا تل حرس القافلة ويستولى عليها ، جزاء ما لقي المهاجرون في مكة من الأذى . ولكن المنافقين بادروا فأخبروا قريشاً خبر خروج النبي وجيشه ، فخرج المشركون في جيش عظيم لإنقاذ تجارتهم وأموالهم .

لم يكن النبي والمؤمنون يعرفون أنهم سيلاقون جيشاً عظيم العدد قوى
العدة ، فقد خرجوا لحرب جماعة قليلة في حراسة القافلة ، فلما وصلوا بدرأ
وعرفوا أمر هذا الجيش جمع النبي أصحابه ليستشيرهم : هل يهاجمون القافلة
ليأخذوا ما فيها من مال وتجارة .. ؟ أم يحاربون عدوهم فيأخذوا بثأرهم ،
وينصروا دينهم ويهزموا جيش الشرك . . . أمّا الأول فأمره يسير هين .
وفيه من المغنم ما يغري النفس ويفتن القلب . وأمّا الثاني فأمر شاق عسير
قد يكون فيه قليل من الغنم ولكن فيه شيئاً عظيماً مما يسعد القلب ويغبط
النفس ويشرح صدور المؤمنين : فيه رضوان الله وثوابه وإعلاء كلمته
ونصرة دينه .

وتحركت عند فريق من المسلمين الرغبة في المغنم الهين اليسير ، خشى
قلة عددهم وضعف استعدادهم فقال : يا رسول الله ، لو أنك أخبرتنا أننا
سنحارب لأخذنا للحرب عدتنا ، ولكن خرجنا للقافلة ، وتحدثت القوم
في ذلك حتى برز شاب من المهاجرين هو المقداد بن الأسود ، أو المقداد بن
عمر ، فقال بصوت يفيض حماسة وقوة وإيمانا : يا رسول الله ، إمض بنا
لما أراد الله لك فنحن معك . والله ما نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى :
« إذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون » ولكن نقول : إذهب
أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون مادامت فينا عيون تطرف . والله
(م ١٤ — بطولات عربية)

الذى بعثك بالحق لو ذهبت بنا إلى أرض اليمن أو الحبشة لسرنا معك
وحاربنا بسيوفنا وجالذنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك
ومن خلفك حتى تبلغ ما تريد .

وسمع أصحاب رسول الله ذلك فأيدوا وتابَعوا وصدّقوا . فأشرق وجه
النبي وبارك الشاب ودعاه بخير .

لقد آثر المقداد الحرب والجهاد في سبيل الله ، وسبيله أشق وأعسر
ولا غنم فيه قريب ، على أن ينال مغنم المال والتجارة وسبيلها أهون وأيسر
وأقرب . وكانت كلمته فيصلاً للرأى لم يبق بعدها سبيل لمرتد ولا خائف
ولا ضعيف ولا طامع . ثم وقعت الحرب ، في اليوم السابع عشر من
رمضان ، بين جيش النبي وصحابته ، وعددهم قليل ، وبين جيش الكفار
يفوقهم في العدد والعتاد . وثبت المسلمون . وكان المقداد من أعظم الذين
أبلاوا فيها شجاعة وقوة ومقدرة : كان راكباً فرسه الذي يسمّى « سَبْحَة »
مستقيماً الصدر عالى الرأس حديد البصر يرمى نبله عن فرسه فيصيب ،
ويضرب بسيفه كواهل الأعداء ، ورؤسهم فينهشهم ويمحق . وكان رسول الله
يخرج من عريشه فيقاتل ويشجع المؤمنين ويحرضهم ويذكّرهم قول الله :
سيهزم الجمع ويولون الدّبر . وكما سمع المقداد ذلك أقدم وأقدم ، وأمعن

في القتال . ولم يكن في جيش المسلمين يوم ذاك ، كما روى الإمام عليّ ،
من يركب فرساً سواه .

فلما أتمّ الله نصره على المؤمنين كانوا قد قتلوا سبعين رجلاً من
المشركين ، منهم أربعة وعشرون من أشرف قريش . فيهم أبو جهل
قائد الحملة ورأسُ الشرك ، وفرعونُ هذه الأمة كما وصفه النبيّ الكريم .
ولم يقتل من المؤمنين غير أربعة عشر .

وروى الصحابة عن النبيّ أنه قال : أمرني ربّي أن أحبّ أربعةً
وأخبرني أنه يحبّهم . وذكر منهم بطلنا الشاب : المقداد بن الأسود ،
الذي شهد مع رسول الله غزواته كلها . وكان ، كما يقول رواية السيرة ،
إذا وقع سيفه على رجل شاطَ الرجلُ كما يشيط الثوبُ في النار ... !

أصبرُهم على الجوع والعطش

شاب من أكرم شباب العرب حسباً وأعزها نسباً . عندما بعث الله محمداً رسولاً نبياً أسلم وأخوان له وثلاث أخوات . فكان هؤلاء من أول من آمن بالنبي ودخل في دين الله . وكان السابقون إلى الإسلام يلقون من قسوة المشركين وشدتهم بلاءً عظيماً وعذاباً شديداً ، وقد لقي من العذاب والقسوة ما لا طاقة له به ، رغم صبره واحتماله وجلده ، فهاجر إلى الحبشة . ولكنه لم يقيم فيها طويلاً حتى عاد إلى مكة ، ثم هاجر منها إلى المدينة حينما هاجر النبي إليها .

كان عبد الله هذا شاباً عظيم الشجاعة في الحرب ، عظيم الصبر على الحنة والألم والشدائد ، وهو ، إلى ذلك ، رقيق العاطفة عميق الإيمان . اختاره النبي عليه السلام قائداً على أول سرية خرجت للقتال ، وعقد عليه أول راية رفعت للحرب : تخير النبي جماعة من المسلمين فجمعهم ثم قال لهم : سأجعل عليكم قائداً هو أصبركم على الجوع والعطش . ثم اختار عبد الله هذا فكان أول أمير للحرب في الإسلام .

فلما التقى عبد الله وسريته بالمشركون وهم في تجارتهم إلى الشام كان اليوم

الأخير من رجب . والقتال فيه محرم عند المسلمين والمشركين . ففكر وقدر ، واستشار قومه ثم انتهى الرأي إلى الحرب . وكان النصر لعبد الله ، فقتل وأسروا أخذ إلى النبي نصيبه من الغنيمة . فلما علم رسول الله ذلك غضب من إقدامهم على الحرب في شهر حرّمت الحرب فيه . وحزن عبد الله وقومه حزناً شديداً وندموا على ما فعلوا . ولكن الله شرفه وشرفهم ، فنزلت فيهم آية كريمة تقرّ ما فعلوا وتحسنه ، فكان فرحهم عظيماً بتصويب عملهم وبما نالهم من الشرف العظيم حين نزلت فيهم آية من القرآن . وقال عبد الله في ذلك شعراً يردّ به على المشركين .

وكذلك كان عبد الله عظيم الإخلاص في إيمانه . أراد النبي عليه السلام أن يزوّج أخته زينب إلى غلامه ومعتوقه زيد . ووجد عبد الله في ذلك معرّة كبيرة ومنقصة بين أشرف العرب فعارض هذا الزواج أوّل الأمر . فلما رأى رغبة الرسول فيه وإصراره عليه . رضى الزواج وباركه . وأمر أخته أن تقبل فلا تعصى الرسول الله أمراً مهماً بالغ .

وجاءت غزوة أحد وكان المشركون قد هزموا قبلها هزيمة منكرة في غزوة بدر . فأقبلوا على الحرب وقلوبهم مملوءة بالحقد على المسلمين ، ونفوسهم متعطشة للثأر لمن قتل من ساداتهم وأشرافهم . وكانت نساؤهم تسير معهم وتختلط بهم في الموقعة تضرب الدفوف وتنشد أناشيد الحرب

وتحرّضهم على أن يشدّوا على المسلمين فلا يبقوا على أحد منهم . وكان عدد
المشركين خمسة أمثال عدد المسلمين .

وكان النصر في أول النهار للمسلمين . ولسكن فريقا منهم تعبّلا فترك
مكانه . وعاد المشركون فهاجموهم وحتى أجلوهم عن مكانهم . وأمعنوا فيهم
ضربا وقتلا . حتى أوشكوا أن يوقعوا بهم هزيمة فادحة ، واختلط الأمر على المسلمين
حتى كان أحدهم يضرب أخاه بسيفه لأنه لا يعرفه أو لا يراه . ولم يبق حول
النبي عليه السلام غير جماعة قليلة . والمشركون يبذلون غاية جهدهم حتى يصلوا
إليه ليقتلوه . وكان عبد الله من هذه الجماعة القليلة التي أحاطت بالنبي تدافع
عنه وتحميه . وظلّ يقاتل حتى كسر سيفه . ومع ذلك بقي ثابتا في مكانه
يدافع ويقاقل إلى جوار النبي حتى قتل وكان من الشهداء .
ذلك هو عبد الله بن جحش .

يقول له النبي : فذاك أبي وأمي

كانوا أربعة من الشباب فقط هم الذين قبلوا دعوة النبي للإسلام ، وأخفوا إسلامهم خوفاً من المشركين . ثم تقدّم شاب فدخل في دين الله كما دخلوا . وكانت سنة يوم ذاك سبع عشرة سنة . أمه شريفة من أكبر أسر قريش نسباً وأعزهم جاهاً . فأحزنها إسلام ولدها أبلغ الحزن وأغضبها أشد الغضب ، وأقسمت أنها لن تأكل أو تشرب حتى يترك دين محمد ، وصامت أياماً عن الطعام والشراب ، فلما ساء حالها قال لها ولدها إنه لن يترك دينه أبداً ، معها تفعل .

ولما بدأ المسلمون يظهرون دينهم وصلاتهم كان المشركون يعتقدون عليهم بالضرب والأذى . فلما تعرّضوا يوماً لذلك أمسك بواحد من المشركين فشجّ رأسه ، وكان ذلك أول دمٍ سالت في الإسلام .

ولما أرسل النبي أول جماعة للحرب بعد الهجرة كان منها هذا الشاب ، وكان أول من رمى بنبلٍ فيها .

اشترك مع النبي عليه السلام في جميع الغزوات والحروب بعد ذلك . ولما هزم المسلمون في غزوة أحد ، وبقي النبي ليس حوله سوى عدد قليل ،

ونبالُ المشركين تصيبُه من كل ناحية حتى ظنّوا وظن كثير من المسلمين أنه قتل ، لم ينهزم سعد ولم يترك مكانه ، بل ثبت إلى جوار النبي يدافع عنه ، وكان رسول الله يناوله النبل وهو يقول : — إرم أيها الشاب القوى ... إرم فداك أبي وأمي .

إختاره عمر لقيادة الجيش الذي أخرجه لفتح العراق . فكانت بينه وبين الفرس موقعة من أعظم المواقع وأهمّها شأنًا وخطرا . هي موقعة القادسية التي دامت أياما . وهو وإن كان لم يشترك فيها بنفسه لمرضه ، إلا أن قيادته ومقدرته وابتسكاره في فنون الحرب كفّلت للمسلمين النصر . ويقول المؤرخون إن جيشه كان بين تسعة آلاف وعشرة ، وجيوش أعدائه كانت مائة وعشرين ألفا . وكان الفرس يسخرون من نبال المسلمين وسهامهم وأدوات حربهم وسيوفهم التي كان بعضها يلفّ في خرق من القماش القديم . ولكن العزيمة والصبر والإصرار على النصر والقيادة الشجاعة الحكيمة جعلت هذا الجيش ونباله وسيوفه تهزم جيش الفرس . وتقتل قائده الشجاع رستم :

ثم سار بعد ذلك على المدائن ، عاصمة ملك الفرس . وهزم ملكها الشاب حتى أرغمه على الفرار ، وغنم في هذه الموقعة مغانم لا تحصى وأصبح بذلك سيداً على العراق كله .

ولم تكن لسعد بن أبي وقاص قدرة فائقة في الحرب وحدها . فقد
تولى بعد ذلك إمارة الكوفة ، فصالح أمرها وازدهر حالها . وبنى مدينة
الكوفة فأقام فيها مساكن عظيمة ، وشيّد قصراً رائعاً فيه ترف وذوق وبراعة
في الهندسة والعمارة لا تقل عن براعته في الحرب .

فاتح قبل سن العشرين

بدأت الفتوحات الإسلامية في الهند ضعيفة متعثرة متباعدة . ينتصر قائد على جيش ويفتح مدينة ، يأخذ أسرى . ولكن غيره يُهزم ويُقتل . حتى وليّ أمر هذه الجيوش قائدٌ بطل . كان في سنٍّ يراه بعض الشباب سنَّ اللهو والعبث والطيش .

شاب من أسرة أخرجت أبطالاً . وكان أبوه بطلاً وحاكماً وزعيماً . وراه ابنُ عمه الحجاج قاهر العراق وحاكماً يحارب إلى جانبه ، فبهرته شجاعته ومقدرته ، رغم صغر سنه . فولاه قيادة الجيوش الغارية في الهند . ومنذ قادها وهي تنتقل من نصر إلى نصر . حتى فتح بهذه الجيوش ، جميع بلاد السند .

ولم يكن انتصار محمد هذا سهلاً ولا يسيراً ، فقد استعمل فيه كل حيلة وبراعة في الحرب . كانت معه آلة تشبه المدفع الذي يستعمل الآن في الحروب الحديثة . وكان اسم هذا المدفع « العروسة » . وكانت هذه الآلة كبيرة ضخمة . يقوم بالعمل فيها خمسمائة جندي . وتقذف حجارة ضخمة تهدم الأسوار والبيوت . حاصر محمد مدينة كبيرة من مدن السند . ثم

وجهه قذائف « العروسة » إلى معبد كبير كان يقدّسه أهل المدينة . فخرج أهلها لحربه . وقامت بينهم موقعة استمرت ثلاثة أيام انتصر فيها القائد الشاب . وهرب حاكم المدينة وقائد جيشها ، فدخلها فاتحاً .

وتسامع أهل السند بما فعل محمد . وعلموا أنه ترك بعض جيشه في هذه المدينة وأنه في طريقه إلى بقية البلاد . فخاف كثير من أهلها ومن حكامها وقوادها بطشه وسيفه . فسأمت له ولم تحارب . وصالحه قوادها . وحكامها على الشروط التي يرضاها . ووقفت مدينة كبيرة في وجه جيوشه ، فلقيت منها الخراب والدمار ولقى أهلها الفناء والموت والأسر .

ووجد ابن القاسم في طريقه نهراً يعوق سير جيوشه . فأقام عليه جسراً عبر عليه بجيشه حتى التقى بملك السند ، ذاهر ، ومعه جيش عظيم . وكان الملك يركب فيلا ضخماً وحوله قواده على أفيالهم . واستعرت الحرب بين الجيشين استعاراً شديداً . فلما بلغت المعركة غاية عنفها ، نزل ملك السند من فوق الفيل ، وظل يحارب اليوم كله حتى قتل في المساء . ولم تغن الفيلة عن أصحابها شيئاً ، فقد هربت بعد أن ألقت أحمالها وراكبيها . وداعت بعضهم بأقدامها . وسار محمد إلى عاصمة ذاهر ، وكانت له امرأة فيها لم تشأ أن تسلم للقائد الشاب ، فخاربها حتى قهرها . فلما علمت أنها مغلوبة

لا محالة . وخشيت أن تقع أسيرة في يده . أحرقت نفسها وجواريتها .
وجميع ما تملك .

وبقيت بعد ذلك مدينة كبيرة لم تفتح ، ولم تصالح . فلم يهدأ للقائد
الشاب ضمير حتى فتحها بعد معارك طاحنة وفرّ مأسكها أو قتل . وقد دافع
كثير من مدن السند جيوشه دفاعاً مجيداً :

في هذه الفتوحات التي قاد جيوشها محمد ، قتل في بعض المدن ، من
أهل السند ، ستة آلاف وحوصرت بعض المدن شهوراً حتى كادت جيوش
المسلمين أن تتركها ، لولا صبر قائدهم وحيلته . ونقص طعام الجيش حتى أكل
جنوده لحوم الحمير . ولكنه ، بعد النصر ، حكم السند خمس سنين . وأرسل إلى
الحجاج في دمشق — في مدة الفتح وحدّها — عشرات الألوف من دنانير الذهب .
قد صدق الشعراء حين مدحوا محمداً بن القاسم فقالوا إن مجده
وسؤدده كانا قريبين جداً من ولده . فهل يعرف الشباب كم كانت
سنّه حين حمل سيفه وخاض هذه الحروب الهائلة ، وفتح هذه البلاد التي
كان فتحها حدثاً من أعظم الأحداث في تاريخ الإسلام بل في تاريخ العالم ؟

كانت سنّه يوم ذاك سبع عشرة سنة ... !

وصدق مادحوه ، بل واصفوه :

قاد الجيوش سبع عشرة حجة يا قرب ذلك مولداً من سؤدد

الفاتح الإفريقي

كان الفاتحون المسلمون يتقدّمون صوب الغرب من أفريقيا يخضعون
الناشرين ، ويفتحون البلاد ، ويحصّنون المدن التي تدخل في سيادتهم .
وقائدهم ، موسى بن نصير ، يطارد الناشئين في المغرب الأقصى . وكانت
مقاومتهم تشدّ وتعنف كلما قاربت النهاية . وتحصّن الناشئون في مدينة
« طنجة » وقتلهم المسلمون عليها قتلا شديدا حتى فتحوها ، وانتهى بذلك
أمر الفتنة والناشرين .

وظهر في هذه المواقع كلّها شاب جسور قوى يحارب ولا يهاب ،
ويقاتل فيبطش ، ويقتحم فيقتل ، فكان له في هذا النصر نصيب كبير
حاز به إعجاب القائد موسى وكسب حبه وتقديره . فاختره موسى حاكما
على طنجة . تقديراً لشجاعته وقوته ومقدرته وحزمه .

وسارت الأحداث بعد ذلك سيرا جعل موسى يفسّر في غزو الساحل
الجنوبي من أوربا . بعد أن انتهى من فتح شمال إفريقيا . فلما أذن له الخليفة
في دمشق في أن يتقدّم على ذلك ، اختار بعض السرايا من الجند في حملات .

صغيرة نقلتها السفن ونزلت أرض أوربا فشهدت ما فيها من خصب وخير
وجمال وثروة . ثم عادت بما تحمل من الغنائم .

أنتم موسى بعد ذلك تجهيز جيشه . واختار قائدا له ذلك المقاتل
الجسور الذي اختاره من قبل حاكما على طنجة . وحملت السفن القائد
وجيشه ، حتى نزلا في الجانب المقابل . على جبل لا يزال يعرف إلى
اليوم باسمه . وكان أول مكان نزله هو ما عرف بعد ذلك بالجزيرة الخضراء .
نزلها قبل الفجر ، فصلى الصبح وعقد الرايات لقواده ، وأقيم بعد ذلك في هذا
المكان مسجد سمي : « مسجد الرايات » . وقال الرواة إن هذا القائد بعد أن أنتم
نقل جيوشه أحرق السفن التي حملتها . حتى لا يفكر أحد في عودة
ولا في فرار . وقالوا إنه خطبهم خطبة معروفة مشهورة قال فيها : أيها الناس
أين المفر : البحر ورأيكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر
إسمحوا لأنفسكم بالموت وقد سمحت به لنفسى معكم . واعلموا أنكم
لو صبرتم على المشقة قليلا ، استمتمتم بالنصر طويلا ، وسأتقدم بنفسى إلى
ملك القوط . فأقتله ، فإن قتلتني قبل ذلك ، فلكم من قتلى عبدة وقدوة
فخذوا بشارى منه .

وسواء أصبح ماذكروه في أمر السفن والخطبة أم لم يصح . فقد بدأ
بالفتح الإفريقى يخرق الجزيرة ، ويفتك بجند الأعداء ، ويستولى على

البلاد والسهول . وبادر حكام المدن في طلب النجدة من رودريك ملك القوط ، فجمع هذا جيشاً قدره الرواة بمائة ألف سار هو على رأسهم . وكان جيش العرب سبعة آلاف من العرب والبربر ، ثم أمده موسى بخمسة آلاف . وكان يساعده بعض الخارجين على رودريك .

إننا عشر ألفاً يقاتلون مائة ألف ، يقاتلونهم على أرض لا يعرفون مسالكها ولا بلادها ولا زروعها ولا ماءها ولا طبائع أهلها ، وهؤلاء يقاتلون في بلاد يعرفون عنها وعن طبيعة أرضها كل شيء . وكان اللقاء الحار في سهل فسيح ، سهل شريش ، وكان في رمضان من أيام صيف حارة . وابتدأ القتال ، ودام في عنف وقوة أربعة أيام ، أبدى فيها الفاتح الإفريقي من ضروب البسالة والقوة والصبر ما أبدا ، وأظهر فيها قائدُهم كل ما يملأ قلبه من الشجاعة ، وعقله من الحيلة والبراعة والمقدرة ، وجاء عيد الفطر والحرب في شدة وسعير ، ولكن لم ينجى اليوم السابع من بدء الموقعة حتى كان جيش رودريك فلولاً تسرع إلى الهرب ، وتسير بلا هدى ، وسيوف الفاتح الإفريقي في أقفيتهم .

ولم يقتل الفاتح الجسور غريمه رودريك ، كما كان يرجو ، ولكن رودريك قتل بالفعل في هذه المعارك : مات في النهر القريب من تيجرا ،

أو مقتولا ، أو مهزوماً انطلقت به فرسه فلم يستطع أن يردّها حتى غرقت به ،
لا أحد يدرى . ولكنه غرق في النهر على أيّ حال . وسار القائد بعد ذلك
إلى الشمال يفتح البلاد ويستولى على المدن والقرى والسهول حتى بلغ طليطلة
عاصمة مملكة رودريك ، فاستولى عليها . وكان بذلك أول عربيّ فتح
أول أرض أوربية .

الفاتحُ الإفريقيُّ هو طارق بن زياد ، والبلاد هي الأندلس .

الموت خيرٌ من الذل

فرّق تسد . قاعدة ليست جديدة في علاقة الغرب بالشرق .
ومذهبٌ قديم سلكه الغرب معنا منذ قرون ، واستطاع به أن ينال منّا
نيلاً شديداً ، وأن يستولى أو يسيطر على أقطار كثيرة عزيزة من وطننا
العربي . بل أن يفقدنا بعض هذا الوطن . وكان أفدح ما أصابنا من هذه
السياسة المفرقة الهدامة ، وأعظمه شراً ونكراً ، مأساة الوطن العربي
في الأندلس :

كان أبو عبد الله آخر ملوك بني الأحمر أميراً على غرناطة ، بعد أن
أثرت سياسة « فرّق تسد » ثمرتها من قبل في أمراء المسلمين ، فخارب
بعضهم بعضاً ، واعتدى بعضهم على بعض ، وانتصر بعضهم بأعداء العرب
من ملوك فرنسا وأمراءها . وكان لأبي عبد الله عمّ يعيش في غرناطة أيضاً .
وأراد فردناند الخامس ملك فرنسا أن يقضى على هذه الإمارة الصغيرة التي
بقيت للعرب في أسبانيا ، فأوقع بين عبد الله وبين عمه محمد بن سعيد .
وقامت الحرب بين أهل الأسرة الواحدة والوطن الواحد والمدينة الواحدة .
فكانت « غرناطة » قسمين : واحد يحكمه عبد الله ، وواحد يحكمه عمه
ابن سعيد ، والحرب قائمة بينهما . وأعان فردناند عبد الله حتى انتصر على
عمه . وكان فردناند ، في واقع الأمر ، هو الذي انتصر . فقد انفرد بعد
ذلك بعبد الله ، بعد أن أضعفته الحرب وأنهكت جنوده وأنقصت

موارده. ووجهه فردناند جيوشه التي كانت تحارب مع عبدالله. وجهها لقتاله والاستيلاء على غرناطة. واختلط الأمر على الأمير، ودار ماذا يفعل أمام خصمه القوى العنيد الماكر.

وكان موسى بن أبي الغسان شاباً من أكرم شباب غرناطة أصلاً وأشجعهم قلباً وأعظمهم فروسية في الحرب. فبادر إلى جمع جيش من الفدائيين الذين يسعون للموت ويقتحمونه ويسعدون به. وكانت جيوش الفرنسيين على أبواب غرناطة تتهيأ لاقتحامها. فكان ابن أبي الغسان يخرج إليهم ليلاً أو نهاراً فيقتحم عليهم خيامهم وحصونهم ويفتك بهم، ثم يرجع إلى المدينة بالأسلاب والغنائم والأسرى. وذاع اسم ابن أبي الغسان في المدينة وانتعشت روحها بأبناء غزواته وفتكه بالفرنسيين، وكانت فتيات غرناطة ونساؤها يتطلعن إليه من وراء الحجب وهو راكب فرسه، يلبس درعا من الحديد، وفي يده سيف مسلول، ومن خلفه جندؤه من الشباب، فيزددن له حباً وبه إعجاباً وإشفاقاً. وظن فردناند أن في المدينة جيشاً عظيماً فلم يقتحمها. ولكنه ضرب عليها حصاراً شديداً، ورأى موسى أن الحصار أضرت بالمدينة إضراراً شديداً، حتى جاع فيها الأطفال والنساء والمرضى وأوشك أن يضيع من قوة شبابه المحارب، فوضع نظاماً صارماً لتوزيع الطعام، وخصص طائفة من محاربيه للهجوم على مؤن الأعداء والاستيلاء

عليها . واستطاع موسى بذلك أن يجعل الحصار لا جدوى منه للفرنسيين .
وأن يعجّل بالمعركة الفاصلة ، على أبواب غرناطة .

وكانت معركة رهيبة قاسية بين جيشين غير متعادلين : الفرنسيون
كالطوفان الجارف ، عددهم وفير وسلاحهم كثير . والمجاهدون قلة ضِعَاف ،
ولكن بشجاعة موسى ومن معه كانت لا تقهر ولا تغلب ولا تلين . فقتلوا من
عدوهم مقتلة عظيمة . ولما رأى موسى كثرتهم وقلة رجاله ، أسرع راجعا إلى
المدينة وغلق أبوابها من خلفه ولم يمكن الأعداء من دخولها .

وجمع الأمير أبو عبد الله رجاله ومستشاريه ليتدبّر معهم الأمر . وأخذ
حاكم المدينة يحدثه عن أمرها ومن قتل من رجالها وأنها على وشك أن
يُنْفَذَ منها الطعام والزاد ، وأن يحلّ بأهلها الجوع . ورأى عبد الله ورجاله
ومستشاروه أن يستسلموا ويسلموا . ولكن موسى بن أبي الغسان أبي وقال :
— خير لنا أن نموت ، ونهدم المدينة ، ويقتل أهلها ، ولكننا لا نسلم .

وجاء إلى أبي عبد الله رسول من عند فردناند بشروط للصالح ، فقَبِلَهَا
هو ومستشاروه . وقام الأمير فحمل مفاتيح المدينة ليقدّمها إلى فردناند ، بينما
خرج ابن أبي الغسان يلبس درعه ، ويركب فرسه ، ويرفع سيفه ، ومن حوله
الأبطال من الشباب . فاقتحموا على جيش فردناند مواقعه . وقد تعاهد
الجميع على الموت . وظلوا يحاربون ويتساقطون صرعى واحداً بعد واحد .

ورأى الفرنسيون فارساً يلقي بنفسه على الجموع فيقتل منهم ، ثم يسرع إلى
غيرهم فيبيطش بهم سيفه ، فتكاثروا عليه بسيوفهم ورماحهم من كل ناحية .
ولكن درعه من الحديد ، وقوة بأسه ، وخفة حركته . جعلت سيوفهم
ورماحهم لا تصيب منه مقتلاً . وبعد أن شفى ابن أبي الغسان غليل قلبه من
أعداء وطنه ، وروى سيفه بالغزير من دمائهم . وأيقن أنه لم يعد مفرّ من
الموت . أسرع إلى النهر فألقى نفسه إلى موجه . وسيفه في يده .

وطوى النهرُ جثة هذا البطل الشهيد ، كما طوى الدهرُ صفحة المجد
العربي في الأندلس .

يزيد بن مَزِيد

في بيت من أمجد بيوت الشجاعة والفخر والفروسية والحرب . ومن
أسرة لها في تاريخ الأمة العربية أمجاد وعِراقة وذكر . أسرته : بني شَيْبَان ،
وأبوه مَعْن بن زائدة . من هذا الأب وفي هذه الأسرة وهذا المجد ولد
وتربى حتى صار رجلاً محارباً وأميراً على سِجِسْتَان وعلى أرمينية . وقائداً
يُنْدُبُه المنصور ، والمهدى ، والرشيد لأن يذود بسيفه عن دولة الخلافة ومجدها
فيذود ، ويخلص الدولة من شرّ عظيم وخصوم أنقصوا الدولة من أطرافها
وأوشكوا أن يفضّوا عِقدَها وأن يذلّوا عزّها .

خرج على المهديّ يوسفُ بن إبراهيم ، وحارب جند الخلافة ، حتى
استفحل شرّه وزاد خطره ، فنَدَب له الخليفة يزيداً . وتلاحم الجيشان
واقْتَلَ الغريمان حتى تغلّب يزيد وأسرَ يوسف بن إبراهيم فبعث
به ذليلاً إلى المهديّ .

واشترك مع الرشيد في غزواته على بلاد الروم حتى وقف للمبارزة مع
أميرهم وقائدهم « نفيطاً » فقتله . وهزمت الروم .

وكانت هناك جفوة بينه وبين المنصور . حتى عزّله عن الولاية واستصنى أمواله وأمر بسجنه ، واستطاع يزيد أن يختفى ويترقب . فلما ثارت الخوارج على الخلافة لم يجد المنصور لحربهم سواه . وبرز لهم يزيد فخارهم حتى قهرهم وردّ للدولة أمنها واعتبارها .

وثارت الفتنة الكبرى على الرشيد بقيادة الوليد بن طريف ، ابن عم يزيد — واستطاع هذا الخارجى أن يستولى على أقاليم كثيرة من بلاد الخلافة ، وأن يهزم جيوشها ويقتل قائدها . فندب له الرشيد يزيدا . وطلب أن يلقاه ، فلما دخل يزيد عليه قدّم له الرشيد سيفاً ثم قال له : هذا السيف الذى قلّدتك ، هو « ذو الفقار » سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم . أعطاه لعلّى . ثم انتهى إلى الخليفة المهدي ثم إلى أخى الهادي ثم صار إلى . وهأنذا أقّله فخّر بنى شيبان ليهزم به عدوّنا ويؤيد به دولتنا . وأجابه يزيد : « عدوّ المؤمنين ، بإذن الله ، مقهور . وجيشه بقوة الله منصور » .

وسار يزيد لحرب ابن عمه الوليد ، وطالت بينهما واحتدمت المواقع والخطوب وليكن أحدهما لم ينتصر ، حتى استبطن الخليفة النصر وكتب إلى قائده كتاباً فيه شيء من العتاب والملامة . وصمّم يزيد على أن ينال إحدى الحسينين : النصر ، أو الموت . والتقى الجيشان يوماً فبرز يزيد ينادى خصمه : يا وليدُ مالك تنسّتر بالرجال . . أخرج إلىّ فأبما قتلتني أو قتلتك .

وخرج له ابن عمه الوليد ، وتبارز البطلان ، والجيشان واقفان ينظران .
ودامت بينهما المبارزة ، كل منهما يطارد صاحبه ويحاوره ويثب عليه
يريد أن ينال منه مقتلاً . حتى استطاع يزيد أن يضرب رجل الوليد فسقط
على الأرض . وتكاثر الجند عليه فقتلوه ، وأرسل يزيد البشائر بالنصر
إلى الرشيد ، ومعها رأس الوليد .

وتناقل الناس أنباء هذه البطولة وهذا النصر . وقال فيه الشعراء ،
حتى وضع مروان بن أبي حفصة يزيداً في المنزلة الثانية بعد الخليفة ، وسمّاه
أسد العرب :

يا أكرم الناس من عجم ومن عرب بعد الخليفة ، يا ضرغامه العرب
إن السنان وحدّ السيف لو نطقا لحدثاك في الهيجاء بالعجب

* * *

وشمل الفخار بيت يزيد وأسرته . وتحدث أهله عن قصة وقعت في
صباه بين أمه وأبيه ، طالما تناقلوها وتذاكروها وتحدثوا بها : فقد كانت
أمه تحس أن أباه يتعلق به ويحبه أكثر من إخوته ، وتحدثت إليه في
ذلك مرة بعد مرة ، وأراد الأب أن يظهر لأمه أن هذا الصبي حري أن يحبه
ويقدمه ويتعلق به . فطلب إلى خديمه في ساعة من ليل أن يحضروا إليه أولاده

جميعاً ، فقام الأولاد من نومهم وسارعوا إلى لقاء أبيهم في ثيابهم من
الحرير . ثم جاء بعدهم يزيد يحمل سلاحه : السيفُ والرمح في يده ، وفي
وسطه منطقتُه ، ودرعُه يحيط بصدره . وسأله أبوه : ما هذه الهيئة يا يزيد؟
فأجابه . يطلبني أبي في هذه الساعة من الليل فحدثني نفسي : لا بد أن أمراً
كبيراً هو الذي جعله يفعل ، فإن كان خطباً أو أمراً أسرعتم لما تأمرني ،
وإن كان غير ذلك فنزع سلاحي يسير .

فعدت أمّه أباه في حبه وتقديره . وعلمت أن سيكون من هذا الفتى
بطلٌ يتحدث عنه الناس .

وقد كان . . . !

الاعشى

لم يمضِ شهران على دخول نابليون القاهرة حتى بدأ المصريون يفتيقون من أثر الهزيمة التي أوقعهم فيها مراد والماليك بغرورهم وطيشهم وجهلهم . وبدأ أهل القاهرة يجمعون أمرهم استعداداً للثورة والانقضاض على الغزاة الذين دنسوا أرض وطنهم .

أخذوا يجمعون ما أخفوا من السلاح والذخيرة ، وينظمون شئون الحرب ، وألفوا من بينهم هيئة لقيادة الثورة كان مقرها الأزهر ، ورئيسها عالم من أكبر علماء : هو الشيخ السادات .

وشهد الناس يوماً شاباً قوياً جهوري الصوت يسير في أحياء المدينة : في شوارع المشهد الحسيني ، والغورية ، والمتولى . ثم في شوارع الحسينية ، وباب النصر ، وباب الفتوح . يسير في شوارع هذه الأحياء وأزقتها وحاراتها ودروبها رافعاً رأسه يدعو الناس بصوته القوي للثورة فيقول : الحرب الحرب ... الجهاد الجهاد ... الحربُ فرِضةٌ واجبةٌ ، الجهاد فرِضةٌ واجبةٌ . الحرب واجبةٌ كالصلاة . الجهاد كصوم رمضان . حتى على الصلاة حتى على الجهاد .

كان الناس يرون هذا الشاب ويسمعون صوته كل يوم . ثم ينتهى
مطافه إلى الجامع الأزهر . وكان هذا الصوت القوي يملأ نفوسهم بالعزم
والقوة والتصميم . ويضاعف حماسهم وإصرارهم على أن يلقنوا هؤلاء
الغزاة درساً لم يستطع المماليك أن يلقنوهم إياه .

وجاء اليوم الحادى والعشرون من شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ وقد
أصبحت القاهرة كلها متحفزة للثورة . وبدأ الرجال والشيوخ والصبيان
والنساء أيضاً يخرجون من مخابثهم ومكائهم ويفتكون بالفرنسيين فى كل
مكان . فإذا تقدم هؤلاء لحربهم أوقفتهم المتاريس التى أقامها أهل القاهرة .
أمام بيوتهم وعلى رؤوس الشوارع والحارات والمسالك . واشتعلت الثورة
وزاد لهيبها يوماً بعد يوم ، وقدم الفلاحون من الضواحي القرية : من الجزيرة
والمطرية ، والزيتون ، والمرج ، وسرياقوس ، وقليوب ، للاشتراك فيها .

واستطاع الثائرون أن ينالوا من الفرنسيين منالاً شديداً ، وأن يقتحموا
مقر قيادة نابليون فى الأزبكية . وقتلوا الجنرال : « ديبوى » حاكم القاهرة .
والجنرال : « سلكوسكى » ، وكان من أبرع قواد نابليون وأشجعهم .
وأحبهم إلى قلبه . كما قتلوا ، فى يومين ، مائتين من ضباطه وجنوده .

ولم تقف الثورة — إلى حين — إلا بعد أن نصب نابليون مدافعه .

حول القاهرة تدكها بقنابلها من غير تمييز . ليلاً ونهاراً . وبخاصة الجامع الأزهر . وبعد أن اقتحمه جندُه وعسكرت فيه خيولُه .

وكان المجاهدون في أيام الثورة هذه يشهدون ويسمعون ذلك الذي يدعواهم للحرب كما يدعواهم للصلاة . فتشتد عزائمهم بصوته ودعوته . ثم انقطع سيرُه وصوته فلم يعودوا يرونه أو يسمعونَه .

وعرف أهل القاهرة أن الفرنسيين قبضوا — ضمن الكثيرين الذين قبضوا عليهم — على ستة من علماء الأزهر ، كان منهم هذا الداعية المجاهد .

وذهب كبار الشيوخ يستشفعون لهؤلاء العلماء ويطلبون من الفرنسيين إطلاق سراحهم ، فقالوا : إننا حبسناهم في بيت الشيخ البكرى تكريماً لهم ، وسنطلق سراحهم بعد قليل . ومكر الفرنسيون بأهل القاهرة وبالشيوخ الشُّعاء وخادعواهم في هؤلاء الستة . ثم علم الناس أن الفرنسيين قتلوهم ... أطلقوا عليهم النار . وقطعوا بعد ذلك رؤوسهم ، ثم ألغواهم في النيل ... !

وحزن أهل القاهرة على شهداءهم حزناً شديداً . وكانوا أشدَّ حزنًا على هذا الشيخ الشاب الذي كان يدعواهم ويحرّضهم . الشيخ سليمان الجوسقي .

كان شابًا قويًا ذا مهابة وصرامة وعناد ، يشتغل بالعلم في الأزهر ،
ويشتغل بالتجارة . جمع ثروة كبيرة من كفاحه وكدحه : توسق السفن
من بلاد الصعيد باسمه ، قمحًا . فيتلقاها رجاله في القاهرة ، فتطحن دقيقًا
في مطاحنه ، ثم يبيع الدقيق في الأزهر .

وكان ، فوق ذلك ، أعمى !..

فتى ون الصعيد

نزلت جيوش نابليون إلى الصعيد، بعد دخوله القاهرة واستقراره فيها .
وكان الجنرال ديزيه ، قائد الجيش الذى نزل إلى الصعيد ، يبعث برسائله
كثيرة متلاحقة إلى نابليون وخلفائه وكلها تفيض بالشكوى من عنف
المقاومة التى تلقاها جنوده فى كل بلدة وقرية من بلاد الصعيد وقراه .

وكان مراد بك كبير المماليك ، بعد هزيمته فى معركة امبابة ، إنحدر
إلى الصعيد ليحارب الفرنسيين . ولكنه بعد ذلك صالحهم ورضى أن يكون
حاكماً على الصعيد من قبيلهم . فكان حرباً على المصريين وصيراً مخلصاً
- بل خادماً - للفرنسيين . ولكن ذلك كله لم يضعف من مقاومة أهل
الصعيد وبساتهم واستماتهم فى الدفاع عن شرف الوطن . وكلما أمعن ديزيه
وجنوده فى التقدم إلى الجنوب ، كلما زاد ما يلقى من بلاء وحرب وعنف
فى المقاومة .

وكانت جماعة من الجنود الفرنسيين تسير قد أنهكها الجهد والتعب ،
فجلس أفرادها إلى ظل شجرة يستريحون . وتقدم صبي مصري يتسأل
فى حذر حتى جاور واحداً من الجنود فهاجمه واستطاع أن ينتزع منه بندقيته .

وقبل أن يطلقها على الجندي ، أسرع جندي آخر فضربه بالسيف على
خراجه فخرجه وأسقط البندقية من يده .

وأخذ الجند هذا الصبي إلى القائد العام الجنرال ديزيه .
وكان نابليون وهو في طريقه إلى الإسكندرية نزل جزيرة مالطة فاحتلها ،
ووجد فيها كثيراً من الأسرى يعرفون اللغة العربية ، فأطلق سراحهم
واستخدم كثيرين منهم مترجمين . وأخذ ديزيه يتحدث إلى الصبي المصري
الشجاع - عن طريق مترجم - فسأله عن شركائه في العدوان على الفرنسيين ،
وعن الذين يحرضونه على المقاومة أو يشتركون فيها من أهل بلده ، وعمن
دفعه لأن يفعل ما فعل . فأجابه الصبي المصري بقوله : - ليس لي شركاء
ولا محرّضون . وقد أمرني ربي بأن أقتل من أستطيع قتله من الفرنسيين .
وكل مصري مجاهد يشترك في هذه الحرب المقدسة بكل ما يستطيع .

وأعاد ديزيه هذه الأسئلة على الصبي مرة بعد مرة ، فلم يسمع منه
غير هذا الجواب ، فسأله : - ومن كنت تريد أن تقتل من الجنود
البندقية التي خطفتها .؟ فقال : - كل من أستطيع قتله . ولو استطعت
قتلك أنت لفعلت . فقال له ديزيه . - إنك طفل صغير لا تعرف العقوبة
التي تحل عليك بما فعلت . ولا كفى أعفوك وأعطيك نقوداً إذا أخبرتنى
عمن حرّضك . فقال له الصبي . - لن تسمع مني جواباً غير ما سمعت .
إنك تهددني بالعقوبة ، فأليك رأسي فأمر بقطعه .

عند ذلك خرج ديزيه عن طوره ، وازداد غضباً وطيشاً وحقاً .
وأمر الجنود بأن يأخذوا الصبي فيجلدوه ثلاثين جلدة . وأخذ الجنود
فكشفوا عن ظهره ، عارياً ، وضربوه ثلاثين جلدة . فلم يصرخ ، ولم يبك ،
ولم يرتفع له صوت ، ولم تتحرك من جسده جراحة . حتى عجب الجنود
من أمره كل العجب . ثم أمر ديزيه بعد ذلك بإطلاق صراحه .

وعندما غادر الصبي معسكر القائد العام ، أراد الفرنسيون أن يعذبوا
به ويخيفوه . فلما ابتعد عنهم خطوات ، أطلق جندي رصاص بندقية
فوق رأسه . ولكن الصبي لم يخف ، ولم يفزع ، ولم يدر رأسه إلى وراء .
ولم يسرع في سيره . بل مشى في طريقه كما كان ، شامخ الرأس .

وخرج جيش نابليون من مصر — أو من بقي من أفراد جيشه —
وسجلت المصادر الفرنسية شجاعة هذا الصبي . كما ذكرت أن ديزيه كان
يذكر على الدوام هذا الصبي المصري الشجاع ويقول إنه لو أحسنت تربيته
لكان منه بطل عظيم .

لا نعرف اسم هذا الصبي . ولكننا نعرف أنه كان من بلدة الفقاعي ،
مركز بها — ولعله ابن فلاح فقير فيها — وأنه كان يوم ذاك في نحو الرابعة
عشر من عمره . ونحن وإن كنا لا نعرف اسمه ولا أسرته ، فنحن نعرف
كيف نحبيته ونمجده شجاعته وذكراه .

كتب للمؤلف :

١ — دراسات في تاريخ الجبرتي ، مصر في القرن الثامن عشر
ثلاثة أجزاء

نال الجائزة الأولى من مجمع اللغة العربية
١٩٥٦
صدرت الطبعة الثانية

٢ — الدين والضمير :
١٩٥٨

٣ — تقويم الفكر الديني وصلته بالقومية العربية :
١٩٦٠

مطبعة محمد بن عبد الله بن عبد الله
الطبعة الأولى - ١٩٩٩ م